أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانية

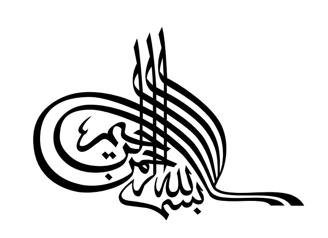
إعـداد الدكتور :

أحمد معاذ علـوان حقي

الأستاذ المشـارك / جامعة الشـارقة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

أبيض



أبيض

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغر الميامين، ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين .... أما بعد :

فإن مما امتازت به الحضارة الإسلامية أنها حضارة العلم والإيمان انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ١]، وقد كان للإيمان أثره الرئيس في تكوينها، ولما كنّا مطالبين باستئناف النهوض الحضاري لهذه الأمة فمن الأهمية بمكان بيان ما للإيمان الحق من أثر في النهوض الحضاري من خلال أثره العظيم على الإنسان وما يحيط به.

وقد كتب الباحثون عن أثر الإيمان في جوانب مختلفة، ولم أجد على حد علمي من أفرد أثره في البناء الحضاري ببحث مستقل، فأحببت أن أُدلي بدلوي في هذا المجال.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي، فهو يستند إلى تحليل النصوص، واستنباط النتائج منها، وقد كانت خطة البحث على النحو التالي :

الفصل الأول: السنن الكونية .

المبحث الأول ـ تعريف مصطلحات عُنوان البحث .

المبحث الثاني ـ السنن الربانية.

المبحث الثالث ـ مقوِّمات بقاء الحضارة الإسلامية.

الفصل الثاني: عوامل نشأة الحضارة .

المبحث الأول : الإنسان محور البناء الحضاري .

المبحث الثاني : القوانين الإسلامية التي تنظم المجتمع .

المبحث الثالث : الإيمان يشعر المؤمن بأهمية الزمن .

المبحث الرابع : الإيمان سبب رئيس في استتباب الأمن.

المبحث الخامس : أثر الإيمان في البيئة الطبيعية .

المبحث السادس : الإيمان يورث المعرفة الصحيحة .

الخاتمه ونتائج البحث.

والله أسأل السداد في القول والعمل .

الدكتور أحمد معاذ علوان حقي

الفصل الأول

السنن الكونية

المبحث الأول : تعريف مصطلحات عُنوان البحث

أ - الإيمان:

الإيمان لغة: أمن: الهمزة، والميم، والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق، والمعنيان متدانيان، والإيمان التصديق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤][1]، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧]، أي مصدق.

أما في الاصطلاح: فهو تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان[2].

قال رسول الله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، و الحياء شعبة من الإيمان)[3]، فقد أدخل الرسول ﷺ العمل في مسمى الإيمان، وعلى هذا لا نقصد بالإيمان مجرد المعرفة النظرية فقط التي

---

(١) (معجم مقاييس اللغة) ابن فارس، مادة (أمن)، ١/ ١٣٣-١٣٥. و(لسان العرب) ابن منظور: مادة (أمن)، ١/ ١١٤، (١٩٧٧م). و(مختار الصحاح) أبو بكر الرازي مادة (أمن)، (١٩٧٦م). و(القاموس المحيط) الفيروز آبادي مادة (أمن) ، ص /١٥١٨، (١٤٠٧هـ /١٩٧٨م) ، بتصرف . آثرت استخدام مصطلح الإيمان بدلاً من مصطلح العقيدة؛ لأن هذا المصطلح هو مصطلح قرآني، فهو إذاً مستمد من الكتاب و السنة، أما العقيدة فمصطلح مستحدث، ومن جهة ثانية نجد أن مصطلح الإيمان يشمل التصديق القلبي والعمل ، بينما العقيدة تشمل الجانب الفكري فقط.

(٢) (شرح العقيدة الطحاوية) علي بن أبي العز الحنفي ٢ / ٤٥٩ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : الإيمان / ١٢، ح (٣٥)، ١ / ٦٣ .

تتعامل مع الأذهان، وتحسب في رصيد الثقافة، وإنما نقصد بالإيمان العمل من وراء المعرفة، فيجب أن تتحول هذه المعرفة إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع لتحقيق غاية وجود الإنسان في هذا الكون كما يرسمه الإيمان[1]، فالإيمان لا يكاد يمسّ القلب الإنساني مساً صحيحاً إلا ويحدث فيه انقلاباً في التصورات، والمشاعر، وسلوك الحياة .

ب ـ الحضارة:

الحضارة لغة: الحاء، والضاد، والراء إيراد الشيء، ووروده، ومشاهدته، والحَضَرُ خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي، أي المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم بالبادية، ويقال: فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، وفلان حَضَرِيٌّ، وفلان بَدَوِيٌّ، والحضارة الإقامة في الحضر، عن أبي زيد: كان الأصمعي[2] يقول: الحَضَارَةُ، بالفتح، قال القطامي[3]:

فمن تكن الحَضَارةُ أَعْجَبَتْهُ   فأيَّ رجال بادِيَةٍ ترانا

والحَضَرُ، والحَضْرَةُ، والحاضِرَةُ: خلاف البادية، وهي المدن، والقرى، والريف؛ سميت بذلك لأن أهلها حضَروا الأمصار، ومساكن الديار التي تكون لهم بها قرار[4].

---

(١) يراجع في هذه المسألة (الإيمان) ابن تيمية: ص / ٢ ـ٣٠، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) عبد الملك بن سعيد بن عبد الملك بن علي بن أصمع ، أبو سعيد الأصمعي (... ـ ٢١٥هـ) الإمام العلامة الحافظ، حجة الأدب، وتصانيفه ونوادره كثيرة، فقد أكثرها . راجع (سير أعلام النبلاء) الذهبي : ١٠/١٧٥ ـ ١٨١.
(٣) عمير بن شُيَيْم من بني جشم بن بكر ، كان من نصارى تغلب فأسلم ، وجعله ابن سلام من الطبقة الثانية من الإسلاميين. (الأعلام) الزركلي : ٥/ ٨٩ .
(٤) راجع (معجم مقاييس اللغة) ابن فارس ، مادة (حضر) ، ٢/ ٧٥ـ٧٦. و (تهذيب اللغة) الأزهري ، مادة (حضر) ، ٤/ ١١٧ـ١١٨. و(لسان العرب) ابن منظور ، مادة (حضر) : ٢ / ١٠٢ـ ١٠٣ .

وقد قارن ابن خلدون[1] بين البداوة والحضارة، وتوصل إلى أن الحضارة والمدنية المرحلة التي يرتقي إليها الإنسان في أحواله، وعلومه، وعوائده، وصناعاته، وفيها يتوسع في الرفاهية، والغنى، ويركن إلى الدعة، والسكون، ويستكثر من الأقوات، والملابس، ويتوسع في البيوت واختطاط المدن والأمصار[2]، وهو أول من أطلقه على معنى قريب من معناه الحاضر.

أما في الاصطلاح: فتطلق الحضارة ـ اليوم ـ على الحصيلة التي تبلغها أمة في الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي، والتقني، فهي جملة من العوامل المعنوية والمادية[3].

يميل جلُّ الباحثين إلى أن هذا المصطلح يشير إلى المنجزات الإنسانية المتراكمة لأمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، خلال حقبة زمنية معينة في مجال المنجزات المادية ـ وسائل، آلات، أدوات، مباني، جسور، مصانع، ... الخ ـ ، وفي مجال المنجزات غير المادية ـ علوم، قيم، نظم، آداب، فنون نظرية .... الخ ـ[4]، فالحضارة أعم من الثقافة

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي(... ـ ٨٠٨هـ)الفيلسوف المؤرخ ، والعالم الاجتماعي البحاثة أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس، توفي فجأة في القاهرة، وله مؤلفات عدة، أشهرها كتاب (العبر ودبوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر). راجع (أعلام) الزركلي: ٣/ ٣٣٠.

(٢) راجع (مقدمة ابن خلدون) ابن خلدون: ص/٨٧ ـ ٨٨

(٣) راجع (المعجم الفلسفي) جميل صليبا: ١ / ٤٧٥ ـ ٤٧٧. و (مشكلات الحضارة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) مالك بن نبي: ص/ ٤٢، و (نحو ثقافة إسلامية أصيلة) عمر الأشقر : ص/ ٢٧، و (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون ، ص/ ١٠. و (في فلسفة الحضارة الإسلامية) عفت الشرقاوي: ص/ ١٤.

(٤) راجع (المعجم الفلسفي) جميل صليبا: ١ / ٤٧٥ ـ ٤٧٧ ، و (الثقافة الإسلامية) عزمي طه وآخرون: ص/ ٥٧، و (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) توفيق الواعي: ص / ٢٦-٢٧.

والمدنية، لاشتمالها على الجانب الماديّ، والمعنويّ، وقد يرى فريق آخر بأن الحضارة هي مرادفة للثقافة، بينما نجد فريقاً آخر يطلق الثقافة على المظاهر المادية، بينما الحضارة على المظاهر العقلية، والأدبية[1].

ونميل إلى الرأي الأول؛ لأن هذا المصطلح من المصطلحات الحديثة وشأن مثل هذه المصطلحات أن يكثر اللجلجة حوله بادئ الأمر، ومع مرور الزمن يستقر المصطلح، وتتوحد الآراء حوله، وهذا شأن مصطلح الحضارة وإن اختلفت الرؤى والتعريفات حوله بادئ الأمر إلا أننا نجد أن هذا المصطلح استقر في ذهن الناس والمفكرين على أنه ثمرة ما قدمته أمة من الأمم في حقبة تاريخية معينة في جوانب علمية، وفكرية، ومادية، واجتماعية.

ج ـ الإنسانية:

الإنسانية لغة: نسبة إلى الإنسان، والإنس البشر، الواحد إِنْسِيٌّ، وأَنَسيٌّ أيضًا، والأُنْسُ ضد الوحشة، وقيل إن أصل الإنس، والإنسان من الإيناس، وهو الإبصار[2].

أما **في الاصطلاح:** فتدل على ما اختص به الإنسان من الصفات، وأكثر استعمال هذا اللفظ في اللغة العربية إنما هو للمحامد، أما تعريفها في العصر الحديث فهي: مجموعة خصائص الجنس البشري المقومة لفصله النوعيّ التي تميزه عن غيره من الأنواع القريبة[3].

وعلى هذا نقصد **بالحضارة الإنسانية:** الحضارة التي تهتم بالإنسان، وتعتني به؛ لأن الأصل فيها والغاية منها سعادة الإنسان، وتلبية متطلباته الروحية، والعاطفية، والعقلية، والمادية، فهي إنسانية الخطاب، وتمتاز هذه الحضارة بالخصائص التالية:

---

(١) راجع (المعجم الفلسفي) جميل صليبا : ١ / ٤٧٧.
(٢) (لسان العرب) محمد بن مكرم ابن منظور ، مادة (أنس) ،١/١١٨ـ١١٩.
(٣) راجع (المعجم الفلسفي) جميل صليبا : ١ / ١٥٨ـ ١٥٩.

١ـ حضارة تقوم على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعبد، وهو وحده الذي يُقصد، وهذا السمو في فهم الوحدانية له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان، وتحريره من طغيان الملوك، والأشراف، والأقوياء، ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده.

٢ـ حضارة إنسانية النزعة، والهدف، عالمية الأفق والرسالة .

٣ـ حضارة تجعل للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها، ومختلف ميادين نشاطها، ولا تتخلى عن هذه المبادئ، ولا تجعلها وسيلة لمنفعة دولة، أو جماعة، أو أفراد .

٤ـ تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وهو يرتكز على الإيمان في أصفى مبادئه، فهي تخاطب العقل والقلب معًا، وتثير العاطفة والفكر في وقت واحد[١] .

٥ـ حضارة تلبي متطلبات الجسد، وأشواق الروح، بحيث لا يطغى جانب منهما على الآخر، فلا يكون تعذيب الجسد وسيلة لصفاء الروح، كما لا يكون الاهتمام بالروح عائقًا أمام متطلبات الجسد.

ونلحظ أنه قامت خلال التاريخ الإنساني حضارات متعددة يمكن أن نطلق عليها أنها متوحشة، ومادية، إلا أنها تفتقر أن تكون حضارة إنسانية تأخذ بيد الإنسان، وترفع من شأنه، وتسعى إلى إسعاده، ومن هنا نستطيع القول إن الحضارة الإنسانية لا يمكن أن تقوم إلا في ظل الإسلام وفي كنفه.

---

(١) راجع (من روائع حضارتنا) مصطفى السباعي: ص/ ٤٦ ـ ٤٨ .

ويبدو قيام الحضارة الإيمانية الإنسانية، أمراً ملحاً، وضرورة فطرية، في ظل المدنية الحديثة التي تسعى إلى تدمير خصائص الإنسان، يقول ألكسيس كاريل[1] : "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا"[2]، وإلى مثل ذلك أشار (ألبرت اشفيتسر)[3]: حيث بيَّن أن الإنسان الحديث فقد إنسانيته، بسبب شيوع أفكار غير إنسانية، ويرجع سبب ذلك إلى الخواء الروحي[4].

وإذا كان كثير من المفكرين الغربيين وضعوا أيديهم على موضع الداء، فإن المستشرق الأسباني (فيلا سبازا)[5] قد بيَّن الدواء، فقال: "إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة، ولا خلق ابتسامة واحدة، وليس أجدر من أمم الشرق العربي المحتفظة بالثقافة العربية، والقائمة على إذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم إلى هوة التوحش الاقتصادي"[6] .

---

(١) ألكسس كاريل (١٨٧٣ ـ ١٩٤٤م) جراح وعالم أحياء فرنسي فاز بجائزة نوبل في الطب ورئيس معهد روكفلر، له (الإنسان ذلك المجهول) وكتب أخرى. راجع (الموسوعة العربية العالمية): ١٩/ ٥٠ .

(٢) (الإنسان ذلك المجهول): ص/ ٣٨

(٣) ألبيرت اشفيتسر، (١٨٧٥ـ ١٩٦٥م) ولد من أسرة ألمانية اهتم بالتاريخ والعلوم الطبيعية، تخصص في فلسفة اللاهوت ، نال جائزة نوبل سنة ١٩٥٢م. راجع (فلسفة الحضارة) ألبرت اشفيتسر : ص / ٤ـ ٥.

(٤) راجع (فلسفة الحضارة) ألبرت اشفيتسر : ص / ٢٠ـ ٢٧ .

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) عمر بهاء الأميري، عن محاضرة (مجلة المجتمع الكويتية)، العدد (١٩٨) ، ٣٠/ ٤/ ١٩٧٤م.

المبحث الثاني ـ السنن الربانية :

إن الله ﷻ خلق هذا الكون وفق سنن، ويراد بالسنن: القوانين التي أودعها الله في هذا الكون، وأخضعه لها بما فيه من مخلوقات، لتكون تلك السنن حاكمة لكل صغيرة وكبيرة، وتتصف تلك السنن بمجموعة من الصفات التي تعطيها صفة القانون الرياضي الصارم، فهي من جهة لا تتبدل ولا تتحول، ومن جهة أخرى فهي مطردة، تتكرر على الوتيرة نفسها كلما توفرت الشروط، وانتفت الموانع، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾ [الأحزاب:٦٢]، وهذه السنن والقوانين هي وفق إرادة الله الكونية، ومشيئته النافذة، ولذلك لا تختل، ولا تتبدل، ولاتحابي أحداً، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر:٤٩]، ويعلمنا القرآن الكريم "أن للتقدم قوانينه وسننه، وأن التخلف والتأخر ليسا إلا ثمرة لغياب هذه السنن والقوانين، فليس التقدم أماني وأحلاماً للكسالى والقاعدين، حتى ولو حسنت منهم النيات، وصحت لديهم المعتقدات النظرية، فحتى الإيمان الديني لا يكتمل إلا إذا جاء العمل ليجسد التصديق، وشواهد القرآن الكريم على هذه الحقيقة تتعدى اقتران الإيمان بالعمل في آياته الكريمة الكثيرة ـ وهو ملحظ له دلالته الكبرى ـ وإنما نرى هذه الشواهد في مثل قوله ﷻ: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾ [النساء:١٢٣]"[1] .

إن معرفة هذه السنن جزء من معرفة الدين، وهي معرفة ضرورية ومن الواجبات الشرعية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في

---

(١) (هل الإسلام هو الحل لماذا وكيف) محمد عمارة : ص / ٣٩.

الحياة حتى لا نقع في الخطأ[1]، ثم إن اكتشافها، وحسن التعامل معها ضروري لعملية الاستخلاف، وعمارة الأرض التي كلفنا الله تعالى بها، والعصبة المؤمنة مأمورة باكتشافها وحسن التعامل معها، فهذا ذو القرنين الملك المؤمن يسر الله له أسباب التمكن والملك والسلطان، فسلك الطريق الذي يسره الله له[2]، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥].

سبيل المعرفة بالسنن الكونية:

ومما ينبغي التنويه إليه أنه لا يوجد علم فلسفة التاريخ، وإنما هناك محاولات من الفلاسفة والمؤرخين والاجتماعيين لفهم أسباب قيام الحضارات واندثارها، وكلها محاولات لم تصل إلى حد وضع قواعد، أو قوانين، أو حتى خطوط عريضة تعين أو تساعد على تعريفنا بالطريق الصحيح الذي ينبغي على البشر أن يسيروا فيه لبناء مجتمع يوفر أسباب السعادة للبشر، واختلاف المؤرخين والفلاسفة في ذلك هو دليل على عدم وضوح الرؤية، ورغم أن توينبي[3] هو أكبر من حاول فلسفة التاريخ في عصرنا، لم يقل قط إنه فيلسوف تاريخ، وأحسن ما قيل فيه إنه شاعر[4].

والسبب في عدم إدراك هذه السنن يعود بالدرجة الأولى إلى أن العقل البشري لا يمكن أن يستقل بهذه المعرفة ابتداء، فلا بُدَّ من فهم القرآن الكريم أولاً باعتباره الكتاب المقروء الذي أخبرنا خالق الكون

---

(١) راجع (السنن الإلهية في الأمم و الجماعات و الأفراد في الشريعة الإسلامية)،عبد الكريم زيدان: ص/ ١٦.

(٢) راجع (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير : ص / ١١٧٠ .

(٣) أرنولد توينبي مؤرخ وفيلسوف إنكليزي معاصر ، توفي سنة ١٩٥٧م . راجع (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون: ص /٤٦ .

(٤) راجع (الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها) حسين مؤنس: ص / ٨-٩.

عن هذه السنن فيه، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، فهو مصدر لبيانها، ثانياً: إعمال العقل في الكتاب المرئي ـ الكون ـ لاستنباط السنن، ولذلك يدعونا القرآن الكريم إلى إعمال العقل في تضاعيف السماوات والأرض لاستنباط السنن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، ويأمرنا بالسير في الأرض والتدبر في الحضارات وتقلبها، والاستفادة من تجربتها، ولو كانت حضارة كافرة حتى لا نقع في أخطائها، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧]، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم:٩]، فلا بد من العقل المستنير بنور الوحي أن يتبصر في سير وتاريخ الأولين لاستنباط العبر والسنن الربانية[١]، بينما العقل المجرد

---

(١) لتوضيح هذه المسألة أقول إن العلماء الغربيين الذين حاولوا البحث في بدايات الإنسان أمثال (توينبي) نظروا إليه على أنه كان أقرب ما يكون إلى حيوان لا يعلم شيئاً، وهذه النتائج التي توصل إليها تخمينات، وتعارض نصوص الوحي التي تخبرنا أن الإنسان كان يشمله عناية الله ورحمته منذ أن خلقه، وهذا مبحث جليل والأدلة عليه كثيرة، ومنها لما قتل أحد ابني آدم أخاه علمه ربه عن طريق الغراب كيف يواري أخاه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٣١] وعلى هذا المفهوم أنكر حسين مؤنس على ابن حزم قوله إن هذه العلوم من ميراث علم النبوة، لاشك أن كثيراً من العلوم أسس بنيانها الأنبياء ثم أضاف البشر على ذلك من خبراتهم، فنوح عليه السلام أوحي إليه في كيفية صناعة

البعيد عن نور الله تعالى يقع في أخطاء فادحة؛ لأنه يفسر الظواهر تفسيراً سطحياً كما قال الحق ﷻ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

ومن جهة أخرى فإن الحياة البشرية تجري بمقتضى سنن أجراها الله في خلقه، ـ ثبتها سبحانه وتعالى لتنظيم الحياة البشرية ـ، وكثيراً منها تكون أطول مدى في تحققها من حياة الفرد القصيرة المحدودة ــ وخاصة ما يتعلق بالجماعات البشرية، ولما كانت السنن الإلهية طويلة المدى في تحققها فيجب علينا أن لانستخرج النتائج خلال جيل أوجيلين؛ لأننا سنقع في أخطاء ـ فقد وجهنا الله سبحانه وتعالى أن نتدبر التاريخ، ونستخرج عبره، إذ التاريخ المجال الواقعي الذي تحققت فيه السنن الربانية من قبل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت:٢٠].

فما لايدرك الإنسان تحققه في فرصة عمره المحدود يستطيع أن يراه متحققاً في التاريخ، ونحن مأمورون بالتدبر فيها، واتباعها، وهي متصلة بالعقيدة، كما هي متصلة بالعوالم الإنسانية؛ لأن الله هو الذي أجراها، وهو وحده يستطيع أن يخرقها، ومن هنا تختلف حتمية السنن الربانية عن الحتمية المادية، أو الحتمية التاريخية التي اصطبغها ماركس[1]، أو الحتمية النفسية التي اصطبغها فرويد[1]، أو الحتمية

السفينة، ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧]، والدروع أول من صنعها داود عليه السلام، ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٨٠]، ولا شك أن الناس بعد ذلك طوروا صناعة الدروع .

(١) كارل ماركس (١٨١٨م ـ ١٨٨٣ م) مفكر اقتصادي ، ولد من عائلة يهودية تسكن ألمانيا ، صاحب نظرية المادية التاريخية، وحاول تفسير أحداث التاريخ على أساس

الاجتماعية التي اصطبغها دوركايم[2]، والتي تلغي كلها إيجابية الإنسان إزاء الضغوط الواقعة عليه خارج كيانه، أو من داخل كيانه، وتجعله عبداً ذليلاً للأوضاع المادية، وفرق كبير بين حتمية السنن الربانية ـ على هذه الصورة ـ المؤكدة لإنسانية الإنسان، وإيجابياته، والاعتراف بوعيه، وحريته، وإرادته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٧-١٠]، وبين الحتميات الزائفة التي أتت بها الجاهلية المعاصرة.

نماذج من السنن الإلهية:

لعلنا نشير إلى بعض هذه السنن التي ذكرها الحق في كتابه ليرتكز عليها العالم المؤمن حين ينظر في تضاعيف السماوات والأرض لاستنباط السنن الكونية، منها:

١ـ هذه السنن حيادية:

من السنن العامة أن الله يعطي على الجهد في الدنيا للمؤمنين والكافرين سواء على قدر ما يبذلونه من الجهد بالطريقة الصحيحة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ ﴾

العوامل المادية وحدها، راجع (موسوعة الفلسفة) عبد الرحمن بدوي :٢ / ٤٠٧،٤١٨.

(١) فرويد (١٨٥٦ـ ١٩٣٩م) ولد من أسرة يهودية ، وهو مؤسس التحليل النفسي، والفكرة الأساسية التي يقوم عليها مذهبه أن الغرض الأساسي من كل فعل يقو م به الإنسان هو تحصيل أكبر لذة، وجعل الألم أقل ما يمكن، ورأى أن السلوك الإنساني يتجه نحو السعادة بمعنى تحصيل أكبر لذة ، أو إشباع الحاجات الحسية . راجع (موسوعة الفلسفة) عبد الرحمن بدوي : ٢ / ١٢٢ـ ١٢٣.

(٢) دور كايم (١٨٥٨ـ ١٩١٧م) فيلسوف اجتماعي ولد في فرنسا من أسرة يهودية ، وتتلخص فلسفته في أن الواقعة الاجتماعية لا تفسر إلا بواقعة اجتماعية أخرى، وهذا يعني أنه لا يجوز رد الظواهر الاجتماعية إلى وقائع اقتصادية ، و إلى أسباب أخرى جزئية . راجع (موسوعة الفلسفة) عبد الرحمن بدوي : ١ / ٤٨٠ـ ٤١٨٢ .

[الإسراء:٢٠]، وهذا يعني أن التمكين في الدنيا ليس في ذاته مقياساً للخيرية، وإلا لكان المغول الذين هجموا على الشرق وأزالوا دولاً ودكوا حضارات لكانوا خير الناس، وإن كنا مأمورين بأن نبلغ التمكن فيها أيضاً، كما أن التمكين في الأرض والاستمرار في التمكين من لوازم الإيمان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وهذا يعني أيضاً أن الاستمرار في التمكن لا يمكن أن يحصل مع الكفر؛ لأنه لايملك أدوات الاستمرارية، بل فيه بذرة الفناء، والدمار.

٢ـ سنن الله في الاختلاف:

من القوانين والسنن سنن الاختلاف، ومن حاول أن يجعل الناس أمة واحدة فمرده إلى الفشل، قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [هود:١١٨]، فالله ﷻ يبين لرسوله ﷺ ولو شاء ربك يا محمد لجعل الناس كلها جماعة واحدة على ملة واحدة ودين واحد، قال قتادة: لجعلهم مسلمين كلهم، وقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ أي ولا يزال الناس مختلفين، ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ [هود:١١٩]، قال بعض أهل التأويل: هو الاختلاف في الأديان، فتأويل ذلك على رأي هؤلاء: ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتّى من بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، ونحو ذلك[١].

ومع ذلك نحن مأمورون بالدعوة قطعاً للعذر وإبراءً للذمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٤].

---

(١) تفسير الطبري : ٧ / ١٣٧.

٣ـ سنن الله في التداول:

من السنن الربانية سنة التدافع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج:٤٠].

ومن هنا فإن العلو في الأرض لا ينحصر في شعب دون شعب، ولا في قوم دون قوم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠]، "إن المداولة توحي بالحركة الدائمة، وبالتجدد، وبالأمل، وتقرر أن الأيام ليست ملكاً لأحد، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة، فمن هم في القمة ستنزل بهم حركة الأيام إلى الحضيض، ومن هم في القاع الآن ستصعد بهم الحركة نفسها.. إلى القمة، إن المداولة القرآنية تحمل كافة جوانب إيجابيتها التاريخية: حركة العالم المستمرة، وتمخّض الصراع الفعال، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان"[١]، ولقد آمن كثير من المؤرخين وفلاسفة الحضارة بظاهرة التعاقب الحضاري حتى غدت عندهم حقيقة ثابتة لا مراء فيها، والحق أنها قاعدة يجب أن تكون متفقاً عليها، وهي سنة الله في خلقه، وهذا أمر ثابت منذ كان للحضارة وجود، وإلا لكانت الإنسانية عرفت حضارة واحدة، فظلت قائمة منذ الأزل إلى ما شاء الله، ثم عاشت الإنسانية في ظلام، فتعاقب الحضارات والأمم والتبدل بين القوة والضعف على مسرح التاريخ، شاهد على سنة الله في خلقه، وغدت فكرة دورات التاريخ وتداول الحضارة من أهم الأفكار والنظريات التي حظيت باهتمام فلاسفة الفكر الحضاري لدى الغرب

---

(١) (التفسير الإسلامي للتاريخ) عماد الدين خليل : ص / ٢٥٩ .

ابتداءً من فلاسفة اليونان، ومروراً بالفكر الكنسي وانتهاء بالعصر الحديث في أوربا، وإن اختلفت في تفسير أسباب سقوط الحضارات[1].

٤ـ شروط الاستخلاف في الأرض:

السنن الربانية التي ينبغي التركيز عليها من العالم المسلم ما يختص منها بقيام الدول وزوالها، وهي أسباب مهمة وجوهرية، وقد أشار ربنا في محكم تنـزيله إلى هذه الأسباب.

من هذه السنن أن الاستخلاف في الأرض يكون بالإيمان والعمل الصالح، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]، والاستخلاف في الأرض غير مقصور على عهد الصحابة والخلفاء الراشدين، وإنما هو ثابت من الله تعالى، وسنة مطردة[2].

وإن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بداية لسقوط حضاري، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة:٧٨ـ٧٩]؛ لأنه حينئذٍ سيستشري الفساد في الأرض، فسرعان ما يزول الاستخلاف، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣]، لقد هلكت أمم

---

(١) راجع (سنن القرآن قيام الحضارات وسقوطها) محمد هيشور: ص/١٣٣ـ ١٣٦.

(٢) راجع (التفسير الكبير) الفخر الرازي، ٨/ ٤١٣ .و (السنن الإلهية) عبد الكريم زيدان : ص/ ١٨٠ .

وزالت دول بسبب انغماسهم في الترف والشهوات[1]، ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٦].

٥ـ الكفر والمعاصي والذنوب سبب هلاك الأمم:

إذاً فانتهاء الحضارات ما هي إلا نتيجة حتمية للكفر والذنوب، والفسق، والظلم، والمعاصي، هذه سنة الله في خلقه، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ ﴾ [النحل:١١٢-١١٣]، وقال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢ ﴾ [الأنفال:٥٢].

وإن نهاية الظلم وشيكة، وعاقبته وخيمة، فهومنذر بزوال العمران، وكما يقال فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ ﴾ [إبراهيم:١٣]، وعاقبة المكذبين وخيمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١ ﴾ [الأنعام:١١]، والشرك عاقبته دمار وهلاك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

---

(١) راجع (حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية) محمد قطب: ص/٩٢ـ١٠٢.

مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴾ [الروم:٤٢]، والعاقبة للمتقين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا ﴾ [النور:٥٥].

فالباطل لا يدوم؛ لأنه ليس له في الواقع ما يؤيده ويؤازره، فإذا جاء الحق فلا يلبث أن يدفع الباطل، وتكون العاقبة للحق، ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، ومن المعروف أن الباطل لا يملك أدوات الاستمرار والتمكين في الأرض باعتباره لا يملك الميزان والضابط الذي ينجيه من الانحراف، والغرور، والمعاصي، وكلها مهلكات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد:١٧].

"فالأخطاء المتراكمة هي السبب الحقيقي الذي يدمر الحضارة ويوقف دورانها، ويأذن لغيره بالقيادة، حتى تموت الأمم وتسقط الحضارات من داخلها قبل أن يسقطها أعداؤها .. وقدرة الأعداء في التغلب إنما تكون فاعلة عندما تجد الاستعداد والضعف الذي يمكِّن لها، والأخطاء الذاتية المتراكمة التي تحصرها قبل أعدائها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٨١]، ومن سنن الله أن جعل الظلم الاجتماعي سبباً في دمار الاقتصاد، ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم:١٧-٢٠]"[١].

(١) (حتى يتحقق الشهود الحضاري) عمر عبيد حسينة: ص / ٤٨ .

٦ ـ سنن الله في الترف والمترفين:

من رحمته ﷻ بالناس أنه لم يرد بسط الرزق لهم جميعاً؛ لأنه يفضي إلى المفسدة[1]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الشورى:٢٧]، ولقد هلكت أمم وزالت دول بسبب انغماسهم في الترف والشهوات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٦].

* * *

(١) (التفسير الكبير) الرازي:٩/٥٩٨ .

المبحث الثالث : مقوِّمات بقاء الحضارة الإسلامية

الحضارات والأمم كالبشر تمر بحالات من الضعف والقوة، بل إن بعض الحضارات تموت، وتبقى أثراً بعد عين، وخبراً يروى في بطون الكتب، ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل:٥٢]، والتداول من سنن الله الكونية، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠]، ولكلٍ من نشأة الحضارة وانهيارها، واندثارها سننها، وأسبابها.

عوامل بقاء هذه الأمة:

والأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم في خضوعها لهذه الدورات الحضارية من ضعف ومن ثم نهوض واسترجاع للقوة، ومما امتازت به هذه الأمة أنها لا تموت، وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل فيها بذرة الديمومة، والبقاء، والإصلاح الذاتي، وأما أهم عوامل بقاء هذه الأمة فهي:

١ـ تكفل الله تعالى بحفظ كتاب هذه الأمة، وهذا دليل على بقائها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، إن هذا القرآن العظيم هو الذي يحفظ هذه الأمة، ولولاه لضاعت الأمة منذ آماد بعيدة، ولا أدلَّ على ذلك من أن هذه الأمة تتلاشى في آخر الزمان عندما يُرفع كتابُ الله، كما أشار إليه الحديث المروي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَدْرسُ[1] الإسلامُ كما يَدْرسُ وَشْيُ[2] الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ، ولا

(١) يدرس الإسلام: درس الشيء والرسم دروساً عفا وهلك ، ومن درس الثوب درساً إذا صار عتيقاً. راجع (لسان العرب) ابن منظور، مادة (درس) ، ٢/ ٣٧٥.

(٢) وشي الثوب: وشي الثوب وشيًا، وشيةً: حسنه، ووشاه: نمنمه، ونقشه، وحسنه. (لسان العرب) ابن منظور، مادة (وشي)، ٦/ ٤٤٧.

صلاةٌ، ولا نسكٌ، ولا صدقة، ولَيُسْرَى على كتاب الله[1] ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ، وتبقى طوائف من الناس: الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها)، فقال له صِلَةُ: ما تُغْنِي عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاةٌ، ولا صيامٌ، ولا نسكٌ، ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفةُ، ثم ردها عليه ثلاثاً، كُلَّ ذلك يُعْرِضُ عنه حذيفةُ، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صِلَةُ تُنجيهم من النار ثلاثاً[2]. فالقرآن يوقظ فينا بواعث النهضة والعمل.

٢ـ من طبيعة هذه الأمة أنها لا تجتمع على ضلالة، بشهادة الصادق المصدوق المؤيد بخبر السماء، حيث قال ﷺ: (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة)[3]، وقال أبو مسعود الأنصاري ﷺ: (عليكم

---

(١) وليسرى على كتاب الله: أي يذهب بالليل، قال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ قال : سَرَى يَسْري إذا مضى . راجع (لسان العرب) ابن منظور، مادة (سري) ، ٣/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه : الفتن/ باب ذهاب القرآن، ح(٤٠٤٩) ، ٢ / ١٣٤٤_١٣٤٥. والحاكم في المستدرك : الفتن، ح (٨٤٦٠)، ٤/ ٥٢٠ وقال صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه

(٣) رواه ابن ماجه في سننه: الفتن / ٨ ، ح(٣٩٥٠)، ٢ / ١٣٠٣.في الزوائد في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف وقد جاء الحديث بطرق، وفي (المغني في الضعفاء) الذهبي: ١/ ٢١٧: قال أبو حاتم: منكر الحديث. ورواه ابن أبي عاصم في (السنة): ح(٧٢)، وفيه الحسن البصري مدلس لم يصرح بالسماع، ورواه الحاكم في المستدرك: العلم، ح(٣٩٢)، (٣٩٤) ، ٠٣٩٥)، (٣٩٦)، ٠٣٩٧)، ٣٩*)، (٣٩٩)، ٤/ ٢٠٠-٢٠٠٢، وقال الحاكم: فقد استقر الخلاف في إسناد هذا الحديث على المعتمر بن سليمان وهو أحد أركان الحديث من سبعة أوجه، لا يسعنا أن نحكم أن كلها محمولة على الخطأ بحكم الصواب، لقول من قال: عن المعتمر، عن سليمان بن سفيان المدني، عن عبد الله بن دينار، ونحن إذا قلنا هذا القول نسبنا الراوي إلى الجهالة، فوهنا به الحديث، ولكنا نقول: إن المعتمر بن سليمان أحد أئمة الحديث، وقد روي عنه هذا الحديث بأسانيد يصح بمثلها الحديث، فلا بد من أن يكون له أصل=

بتقوى الله ولزوم جماعة محمد ﷺ فإن الله تعالى لن يجمع جماعة محمد على ضلالة)[1]، وهذه الميزة باقية في هذه الأمة لبقاء مصدر التشريع الكتاب والسنة، قال ابن عباس رضي الله عنه: تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣][2].

٣- ستظل طائفة من هذه الأمة على الحق، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، حتى يأتي أمر الله لا تأخذهم في الله لومة لائم، (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك)[3].

٤- عوامل التجديد باقية في هذه الأمة، برجال يرسلهم الله على رأس كل قرن، قال ﷺ: (إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر دينها)[4].

٥- حفظ هذه الأمة من الهلاك: الله سبحانه وتعالى لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً يمحو به دولة الإسلام، ويذهب آثارهم، ويستبيح بيضتهم[5]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

=بأحد هذه الأسانيد، ثم وجدنا للحديث شواهد من غير حديث المعتمر لا أدعي صحتها، ولا أحكم بتوهينها، بل يلزمني ذكرها لإجماع أهل السنة على هذه القاعدة من قواعد الإسلام.

قلت: وستأتي أحاديث صحيحة تؤكد هذا المعنى مثل حديث: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك).

(١) رواه الحاكم في المستدرك: الفتن، ح(٨٥٤٥)، ٤/ ٥٥٢، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الطبري،(تفسير الطبري): رقم (٢٤٤٠٠)، ٨/ ٤٧٩ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : الإمارة / ٥٣ ، ح (١٩٢٠)، ٣ / ١٥٢٣ .

(٤) رواه الحاكم في المستدرك : الفتن، ٤/ ٥٢٢ . وسكت عنه الذهبي في التلخيص . وقال الألباني صحيح (صحيح الجامع)

(٥) (الجامع لأحكام القرآن) القرطبي : ٥/ ٤٢٠.

[النساء:١٤١]، قال رسول الله ﷺ : (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضًا)[1]، قال الإمام النووي: "أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام فلله الحمد والشكر على جميع نعمه"[2].

والتاريخ يشهد أن هذه الأمة أصابتها نكسات، ونكبات كبرى منذ نشأتها حتى ظن الظانون بها ظن السوء، وابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً، ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج، وأن تحول الهزائم المرة إلى انتصارات، وتصير إلى قوة بعد ضعف، وتتوحد الأمة بعد أن كانت شتاتاً، وأشلاء ممزقة مبعثرة.

واليوم تجتاز الأمة مرحلة من أسوأ المراحل التي مرت بها، ويمكن أن نطلق عليها مرحلة الغثائية، قال رسول الله ﷺ: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها) فقال قائل: أومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يارسول الله، وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا

---

(١) روا مسلم في صحيحه : الفتن/ ٥، ح (٢٨٨٩) ، ٤/ ٢٢١٥.
(٢) (صحيح مسلم بشرح النووي) : ١٨/ ١٤ .

وكراهية الموت)[1]، وهذه كسابقتها ستمر بلا شك، وسيمكن الله لدينه مرة أخرى في الأرض تحقيقاً لوعده، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، والمطلوب منا في هذه الآونة أن نعرف حقيقة هذه الأزمة، وما المخرج منها ؟.

يجب علينا أن نتدبر القرآن أولاً ونعيه، ونعمل به، فهو يرمي إلى بناء الإنسان، والمجتمع، والدولة، وإعمار الأرض، وبناء الحضارة، فيه بيان السنن الربانية، والقوانين الكونية عن قيام الحضارات، وازدهارها، وسيرها في طريق القوة والنضج، ويحث المسلمين على التمسك بها لتكون قيادة العالم في أيديهم، كما يبين عوامل هلاك الحضارات، واندثارها بعد القوة، وبعد النضج، ويهددهم إن تساهلوا، أو انحرفوا عن الجادة بالوقوع في مغبتها وسوء عقباها.

أنزل الله هذا القرآن الكريم لينشئ أمة يسلمها قيادة البشرية، لتنأى بنفسها عن التيه، والضياع، "لقد جاء النص القرآني ـ ابتداءً ـ لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم، وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير، وهذه الرعاية من الله ذي الجلال ـ وهو الغني عن العالمين ـ أن يتلقوها وقد فرغوا لها قلوبهم، وعقولهم من كل غبش دخيل، ليقوم تصورهم الجديد نظيفاً من كل رواسب الجاهليات ـ قديمها وحديثها على السواء ـ مستمداً من تعاليم الله وحده، لا من

(١) رواه أبو داود في سننه: الملاحم / ٥ ، ح (٤٢٩٧)، ٢ / ٥١٤ .قال عبد القادر الأرناؤوط: في سنده أبو عبد السلام صالح بن رستم الهاشمي، وهو مجهول ، لكن قد رواه أحمد : ٥/ ٢٧١.من طريق آخر وسنده قوي.(جامع الأصول): ١٠/ ٢٨ .وقال الألباني صحيح (صحيح الجامع).

ظنون البشر، التي لا تغني من الحق شيئاً !"[1]، ولعل من نافلة القول أن نـذكر أن غيـاب التـدبر القرآنـي، والفقـه القرآنـي هـو الـسبب وراء الغياب الحضاري لهذه الأمة.

***

(١) (خصائص التصور الإسلامي) سيد قطب: ص / ١٥ .

الفصل الثاني
عوامل نشأة الحضارة

الحضارة تطلق على المعارف العلمية، والنظم الاجتماعية، ومظاهر الحياة المادية التي يعيشها المجتمع، وعلى هذا نقول إن الحضارة ثمرة الجهد الإنساني باستثمار ما يحيط به لخير الإنسانية، فالإنسان إذاً هو أساس هذا البناء الحضاري، "فهو صانعها، ومبدعها، فهي المميزة له عن غيره من سائر الأحياء"[1]، ثم يأتي التفاعل مع البيئة كعامل مهم في نشأة الحضارة، وللنظم التي تحكم علاقة الإنسان دور رئيس في عطاء الإنسان، ومن ثم في بناء الحضارة، وصُنَّاع الحضارة يعلمون ما للزمن من أهمية كبيرة في بنائها، ثم يأتي دور الأمن والأمان في عطاء الإنسان، وإبداعه، والحضارة تبنى بالعلم لا بالجهل، وهذه العوامل مجتمعة لها دور أساسي في تكوين الحضارة، والإيمان الحق هو الذي يحقق هذه العوامل مجتمعة، ولذلك تتكون الحضارة الإنسانية السوية في ظل الإيمان، وفي كنفه، فهو الرحم التي تتخلق فيها كل النواتج الحضارية بإبداعاتها المعنوية، والمادية، والإبداعات المادية ما هي إلا أفكار تبلورت وتجسدت في شكل مادي، يقول ولو ديورانت: "إنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في

---

(١) (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة ناطور وآخرون: ص/ ١٢، و يقول مالك بن نبي: الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكوِّن النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، وهذا الكائن في ذاته نتاج الحضارة، إذا هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء. (ميلاد مجتمع) : ص/ ٢٩.

نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة، وازدهارها"[1].

ونستخلص مما سبق أن عملية النهوض الحضاري لا بد فيها من عوامل نجملها فيما يلي:

أولاً ـ الإنسان الصالح الذي يحمل أعباء النهضة.

ثانيًا ـ التشريع الذي ينظم حياة الإنسان .

ثالثًا ـ استثمار الوقت، واستغلاله.

رابعًاـ الأمن والأمان؛ لأن ذلك يفتح أمام الإنسان مجالات الإبداع.

خامسًا ـ أهمية البيئة في بناء الحضارة، إذ هي المادة الخام لها.

سادسًا ـ العلم، فالحضارة تبنى على العلم لا على الجهل .

باعث النهوض الحضاري:

عملية النهضة الحضارية لا بد لها من باعث قوي يحمل أفراد الأمة على النهوض، ودارسو الحضارات تكلموا عن هذا الباعث، فيرى ابن خلدون أن العصبية القائمة على القربى وصلة الدم هي العامل، أو الدافع إلى نشأة الحضارة، فيقول: "ذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية ...، فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة"[2]، ويحدد عُمْر الدولة في الغالب بأعمار ثلاثة أجيال، ثم تنهار الدولة، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين، وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة[3] .

---

(١) (قصة الحضارة) ول ديورانت: ١/ ٣.

(٢) (مقدمة ابن خلدون) ابن خلدون: ص/ ٩٤.

(٣) المرجع السابق ،ص/ ١٢١-١٢٢ .

بينما يرى شبنجلر[1] أن التاريخ يتكون من كائنات حية هي الحضارات، وكل حضارة كالكائن العضوي يولد، ثم ينمو، وأخيراً يموت، وتتولد الحضارة في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة، وتنفصل عن الحالة الروحية الأولية للطفولة الإنسانية[2].

أما توينبي[3] فيرى أن الحضارة تنشأ عن الأديان، وأن وراء كل حضارة من حضارات اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ، ولا يعتبر الإمبراطوريات مقياس الحضارة، بل تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع، ويرى أن شخصيات التاريخ لن تكون قابلة للفهم إلا إذا نظر إليها باعتبارها أدوات للنشاط الروحاني، أما نقطة التحول في النهضة الحضارية كما يراها توينبي ففي عنصر التحدي والاستجابة، فقد يكون هذا التحدي ناتجاً عن الضربات الداخلية أو الخارجية، فقد يحدث أن تنهزم أمة ما فتمثل هذه الهزيمة صدمة قاسية، فإذا استطاعت هذه الأمة أن تستجيب لهذا التحدي بنجاح فإن المجتمع يستثير طاقاته الإبداعية الكامنة، وتنهض مدافعة عن نفسها بقوة مضاعفة[4].

---

(١) شينجلر (١٨٨٠-١٩٣٦م) فيلسوف ألماني له كتاب في انهيار الحضارة ، درس في جامعتي برلين وميوخ، وتخصص في العلوم الطبيعية، ونال درجة الدكتوراه عن هيراقليطس عام ١٩٠٤م . راجع (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون : ص / ٤١.

(٢) راجع (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون: ص / ٤١ . و (الحضارة الإسلامية) محمد البطاينة: ص/١٩-٢٠ .

(٣) تقدمت ترجمته .

(٤) راجع (في فلسفة الحضارة الإسلامية) عفت الشرقاوي: ص / ٢٠٨ -٢٠٩. و(أسس مفهوم الحضارة في الإسلام) سليمان الخطيب: ص/٣٤-٣٥، ٧٧-٧٨ .

نستخلص مما سبق أن نهضة الحضارة تبدأ بباعث قوي يحمل أفراد الأمة على النهوض، وأن أعظم باعث على النهوض الإيمان؛ لأنه الروح الوثابة، وهو معين لا ينضب من القوة؛ لأنه يتصل بالله تعالى، وهذا ما يحمل المؤمن على الشهود الحضاري، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢]، وهو حياة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴾ [الأنفال:٢٤]، فالإيمان يفجر الطاقات والمعارف في نفس المؤمن، بل يحفزه إلى العلا بما يزرع في نفسه من العزة والإباء، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته فقال: "إن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوة، أو دعوة حق"[1]، ومن جهة أخرى فإن المؤمن يعلم أن الله ﷻ خلقه لغاية سامية، وجعله خليفة في هذه الأرض، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ ﴾ [البقرة:٣٠]، ومن المهمات الرئيسة التي أنيطت به عمارتها، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١]، وأي تقصير في هذا الجانب سيسأل عنه، والآيات تؤكد على استمرارية الجزاء على الفعل، وتواصله في الأرض والسماء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦].

"ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلاً لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباءً لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة، وبعبارة أصح، مكدسة لا تؤدي دوراً ما في التاريخ؛ حتى

(١) (مقدمة ابن خلدون) :ص / ١١٢ .

إذا ما تجلت الروح بغار حراء ... نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قروناً طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن و الرقي"[1]، إن ما حققه المسلمون لم تستطع شعوب كثيرة أخرى تحقيقه مع أنها تملك من مقومات الحضارة ما يؤهلها لهذا الدور، فبيزنطة وريثة الحضارتين الشرقية والإغريقية بقيت على جهالتها، مع أنها بلغتها اليونانية كانت أقرب الناس إلى الحضارة الإغريقية، والسوريون هم تلامذة الإغريق، كان لهم من الحضارة قبل الإسلام حظ وفير، وقد نقلوا كثيراً من أعمال الإغريق إلى لغتهم، ولكنهم فشلوا في إقامة حضارة كبيزنطة، و لم تكن فارس التي اقتبست من حضارات الصين والهند، والإغريق بأسعد حظاً من بيزنطة أو سورية، و لم يأتِ خلفاء الإغريق على عرض الحضارة من بيزنطة، أو سورية، و لم يأتوا من فارس، بل أتى سادة الحضارة الجدد من قلب الصحراء الجدباء ليتبوأوا فجأة مركز الزعامة بين حضارات العالم بلا منازع، مدة ثمانية قرون، وبهذه ازدهرت حضارتهم أكثر من حضارة الإغريق أنفسهم[2]، "فالإيمان هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، هو الذي يربط بين أجزائها، وهو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيزنها بميزان الحق ﷻ، فتخرج من عبورها خلال العقيدة الإسلامية متجانسة مع كل ما حولها"[3].

---

(١) (شروط النهضة) مالك بن نبي: ص / ٥٦- ٥٧ .

(٢) راجع (شمس العرب تسطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٣) (أسس مفهوم الحضارة في الإسلام) سليمان الخطيب: ص / ١٢٠ .

ودور العقيدة في تكوين الحضارات، وبناء الأنفس، والمجتمعات قضية مسلمة في كل المذاهب الفكرية والتاريخية، وهو الذي يخرج القوى الكامنة في النفس البشرية إلى واقع عملي[1]، وهذا ما حمل علم الاجتماع أن يقول في تعريف الإنسان بأنه حيوان ديني[2]، ومعلومات القوانين الطبيعية فقط، لا يمكن أن تكون أساساً لحضارة إنسانية سامية؛ لأنّ هذه المشاهدات والمعلومات لا تجعل الإنسان إلا في منزلة حيوان عاقل، ولا تعين إلا على أن تتخذ للحياة تلك النظرية التي هي نظرية الماديّين، وهي أنّ حياة الإنسان تنحصر كلها في هذه الدنيا، وغايته النهائية أن يحقق رغباته الحيوانية بأكثر ما يكون من الجودة والكمال، وأن الوجه الحقيقي لاستعمال القوة هو أن ينسجم الإنسان مع ما يجري في هذا الكون من قانون التنازع للبقاء، والانتخاب الطبيعي، وبقاء الأصلح، والحضارة الغربية اتخذت هذه النظرية في الحياة، وكان عاقبة أمرها أن جميع القوى التي تسلحت بها غدت تستعمل لهلاك الإنسانية لا لسعادتها، وعاد الغربيون يشعرون بأنهم في حاجة إلى حضارة إنسانية أسمى مما هم فيه من الحضارة الحيوانية[3].

إن حب معرفة الغيب جبلة فُطر عليها البشر، وبتجاهل البعد الغيبي نمارس عملية تزييف وتزوير في تفسيرنا للتاريخ البشري، ونلغي من حسابنا مساحات أساسية واسعة من فاعلياته ومعطياته، لا لشيء إلا أنه لا يخضع لمقاييس الحس، ومن قال إن وجدان الناس، وعواطفهم، وتكوينهم الفطري الأصيل إنما هو خارج عن نطاق التاريخ ؟ أليس هو تاريخ الإنسان.

---

(١) راجع (سنن القرآن في قيام الحضارات) محمد هيشور: ص / ١٢٥.

(٢) راجع (ميلاد مجتمع) مالك بن نبي: ص/ ٦٩.

(٣) راجع (نحن و الحضارة الغربية) أبو الأعلى المودودي: ص / ٩٥ .

إن النزوع الغيبي مركوز في فطرتنا وليس كما يقول ماركس إنها محاولة برجوازية لإسكات الجائعين، فقد ظهر في التاريخ قبل ظهور الطبقات، فهو أسبق، وأعمق، وأشمل من أي تفسير يرده إلى مقولة نسبية مسبقة لكي يرغمه على الانسجام ومعطياته[1] ؟.

***

(١) راجع (التفسير الإسلامي للتاريخ) عماد الدين خليل: ص/ ١٣٣ ـ ١٣٥.

المبحث الأول ـ الإنسان المؤمن محور البناء الحضاري :

الحضارة نهر عظيم متدفق ومتجدد، والأفراد قطرات من هذا النهر العظيم، وعلى هذا فالإنسان هو أساس بناء الحضارات لأنها ثمرة مجهوده لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض، وهو أيضاً معول هدمها، فهو الركن الأساسي في بناء الحضارة أو هدمها، والمتأمل في نصوص الكتاب والسنة يجد عناية فائقة بالإنسان، واهتماماً به، فهو مخلوق مكرم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]، فهو ليس بخالق ولا مفطوراً على الخطيئة، ولا عبداً لحيوان ولا لجماد، بل مخلوق مكرم خلق على فطرة الإسلام، والنقاء، والطهر: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]، وهو محور هذا الكون وقد سخر لخدمته، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣]، فالإيمان الحق أعطى الإنسان الدور الرائد في الأرض، وخلافتها، وهو دور مركزي في نظام الكون كله، يمنحه مجالاً هائلاً للعمل، والفاعلية، والتأثير، ولكن دون غرور زائف.

الإيمان محور صلاح الإنسان :

إن الشخصية الإنسانية السوية لا تتكون إلا من خلال الإيمان الصحيح، سواء نظرنا في ذلك إلى معاني الحياة التي يقدمها الإيمان، أو إلى تحقيق طموح العقل، أو الاستجابة لأشواق الروح التي لا توجد إلا في رحاب الإيمان، فهو المحرك الأقوى إلى الخير، وخير دليل على أثر الإيمان في صياغة الإنسان، وصناعته ما ذكره الحق سبحانه في

محكم تنزيله فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال:٢٤]، فهذا الإيمان دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة، وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، من نماء، وحيوية، وعطاء، هذا الإيمان هو دعوة إلى منهج للحياة، وعودة للوعي والفكر إلى حد تستحيل فيه المقارنة بين المؤمن وغيره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ ﴾ [فاطر:١٩–٢٢].

وتتجلى أهمية الإيمان في بناء الفرد بناءً سوياً في أن الله ﷻ حين أرسل رسله تترى أمرهم بادئ ذي بدء بإصلاح العقيدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فالإيمان هو القضية الأولى التي يتصدى لها الأنبياء منذ اليوم الأول في الدعوة، فقد بدأ الرسول ﷺ أولى خطواته في دعوة الناس إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هذه هي لبُّ دعوته ﷺ، وظل يركز عليها طوال ثلاث عشرة سنة، يركز جُلَّ جهده في تربية النفوس لتحمل أكبر طاقة إيمانية يتسع لها القلب البشري، وهي القضية الكبرى والأساسية في هذا الدين الذي سيقوم عليه ذلك البناء الضخم، لأن الأمور الأخرى هي نتيجة منطقية، أو ثمرة من ثمار هذا الإيمان السليم؛ لأنّه متى استقر الإيمان في النفس استقر معه في الوقت ذاته النظام الذي تمثل فيه هذا الإيمان، ولما بدأ البناء بالفعل ـ في المدينة المنورة ـ شمخ خلال سنوات قلائل، بل إن الحضارة الإسلامية بسطت نفوذها على العالم القديم بسرعة مذهلة حتى عُدَّ ذلك معجزة، ولولا هذا الأساس لما تحقق ذلك كله "ولقد كانت حركة هذه الأمة بإيمانها في مجالات الحياة المختلفة أعظم حركة

في التاريخ، فلزم في أن يكون الأساس الذي يقوم عليه بناؤها أرسخ أساس، وأعمق أساس .... كانت الهداية إلى التوحيد هي قمة العطاء الرباني لهذه الأمة، وهي كذلك قمة العطاء الذي قدمته هذه الأمة للبشرية"[1]، لقد كانت الجزيرة العربية تعيش جاهلية جهلاء، وفي ظلام دامس، دون أن تستفيد من الحضارات الأخرى التي كانت تبسط نفوذها على أطرافها، بل تكون أحياناً عرضة لتصارع نفوذ تلك الحضارات فما إن أشعَّ نور الإسلام حتى كون الإسلام أعظم حضارة، وهذه الحضارة ولدت في ظل الإيمان، بل انبثقت منه، ونمت وازدهرت في ظله، ولم تخرج من ظله، إلا حينما أصابها الانحراف، وكما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوَّلها"[2]، فبهذا الإيمان ألف الرسول ﷺ بين القلوب المختلفة، والأهواء المشتتة، والقبائل المتناحرة، وأنار به قلوباً مظلمة، وأعلم به بعد الجهالة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، فصارت أمته ﷺ بمنِّ الله وكرمه بالإيمان خير أمة أخرجت للناس.

ومحور الدين هو إخلاص العبادة لله، وهو تزكية للنفس الإنسانية، وتطهير لها من الأدران، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤]، وهي من مهام الرسل ـ عليهم السلام ـ، وقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى تزكيته، فقال: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات:١٨-١٩]، "وليست تزكية النفس بدورها إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق وجد ... فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو كدورات الأهواء، والرعونات، يخلص صاحبها في تحمل كل ما يجب

---

(١) (رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر) محمد قطب: ص / ١٣١- ١٣٥

(٢) (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) القاضي عياض: ٢/ ٦٧٦.

أن يتحمله في سبيل بني جنسه من المهام، والواجبات المختلفة، وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها، يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنسل، ابتغاء مصالحه، وأهوائه الشخصية، مهما تحلى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، وإذاً فالوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقة، إنما هي عمارة الأرض"[1].

الحضارة تبنى على سواعد الصفوة:

الحضارة تبنى على الصفوة المختارة التي تستنقذ الأمة من براثن التخلف، ولابد لهذه الصفوة من صفات تؤهلها لتقود الأمة إلى التغيير، والانبعاث من الرقدة، وانتشالها من الجهل، والكسل، ولا تزال الجماعة من الناس بخير ما دامت الصفوة القائدة تشعر بثقل التكليف وتتحمل أعباءه، وهذا أمر متفق عليه عند علماء الحضارة من (تستافيكو) إلى (توينبي)، ويرى توينبي: أنه لابد لكل جماعة إنسانية من صفوة قائدة لكي تتقدم وتتحسن أحوالها، ولا يتم تقدمٌ إذا عدمتها الجماعة، فكأنها خميرة التقدم والنهوض[2].

ومن هنا جاء اهتمام الرسل ـ عليهم السلام ـ بالإنسان حتى ينشأ النشأة الصالحة؛ لأن المؤمن يترك بصمات واضحة في كل شيء حوله، بل هو المحور الرئيس في التغيير إلى الأصلح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦]، فبناء الحضارة أحد الوظائف الأساسية التي حملها الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١]، أي كلفكم بعمارتها، و قَالَ تَعَالَىٰ:

---

(١) (منهج الحضارة الإنسانية في القرآن) محمد سعيد البوطي: ص / ٢٤ .

(٢) راجع (الحضارة) حسين مؤنس: ص/ ١١١-١١٤.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]، فإقامة الحضارة الإنسانية هي إحدى الوظائف التي أنيطت بالعصبة المؤمنة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥]، وعلى هذا فإن الإيمان أحد الشروط الأساسية لإقامة الحضارة الإنسانية السوية، وللاستخلاف في هذه الأرض.

والقرآن الكريم يبين لنا أن الأنبياء هم الرواد الأوائل، والقدوة الحسنة، والصفوة المختارة لإقامة الحضارة الإنسانية السامية، بما امتازت به شخصياتهم من صفات قيادية، وتمثل فيهم الكمال الإنساني؛ لأن الله ﷻ خلقهم لإنقاذ البشرية، وقد أعدهم الله إعداداً خاصاً، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه:٣٩]، ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه:٤١]، فقاموا ـ عليهم السلام ـ بألوان من الأنشطة الاقتصادية والصناعية بالإضافة إلى مهمتهم الرئيسة الدعوة إلى عبادة الله، وتربية الأمم ورعايتها، وهذه المهام مجتمعة هي التي يبني بها الإنسان مختلف جوانب الحضارة، فهذا سيدنا نوح عليه السلام رائد في صناعة السفن استخدم الخشب والحديد في صناعتها، وبهذا نجى الله نوحاً عليه السلام ومن آمن معه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:٣٧–٣٨].

وكان إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، من كبار الرواد في البناء والتشييد، فعهد الله إليهما رفع قواعد البيت التي ستكون قبلة للمؤمنين، ومحط رحال أفئدة العابدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۧمُ

﴿ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧].

وقد وهب الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام قدرة في تليين الحديد، وتحويل المعادن، وصناعة أدوات الحرب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠]، ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٨٠]، واللبوس: اللباس، والمراد الدرع، قال قتادة: كانت صفائح فأول من سردها، وحلقها داود عليه السلام فجمعت الخفة والتحصين"[١].

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عن دهشة بلقيس عند وصولها إلى ملك سليمان، ودخولها قصره، فقال: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤].

وتفوق يوسف عليه السلام في أمور تدبير شؤون الملك والاقتصاد، وكان أميناً على خزائن الأرض، خزائن أكبر حضارة في الدنيا آنذاك، فأنقذ بتدبيره أمة أوشكت أن تهلك بالأزمات الاقتصادية، والمجاعات المتتالية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥]، أي أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وَاصْفاً نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة للملوك ممن يولُّونه[٢].

وقد أتقن الملك الصالح ذو القرنين بناء السدود، وكان ذلك مانعاً من توسع هجمات يأجوج ومأجوج، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ

(١) (الكشاف) الزمخشري: ٣/١٢٦.

(٢) المرجع السابق ، ٢/ ٤٦٣.

يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴾ [الكهف:٩٤]، وهكذا بقية الأنبياء.

والرسول ﷺ بلغ الكمال الإنساني في علمه، وخلقه وشهد له بذلك ربه في محكم تنزيله، وهي شهادة لم يحصل عليها مخلوق، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم:٤][1] .

وقد توصل (توينبي) بعد دراسة مستفيضة لإحدى وعشرين حضارة، إلى أن الزمرة المختارة، هي التي تقود المجتمعات البشرية دائماً نحو التحضر، ولا يتم التقدم إلا بها، فهي ضرورية للتقدم والنهوض، فإذا أصابها التصدع، أو الفساد، أو انصرفت الصفوة المبدعة عن رسالتها تبدأ الحضارة في التدهور، فالتفكك في أي حضارة يأخذ صورة انشقاق في الصفوة القائدة[2]، وقال توماس كارليل :"إن التاريخ البشري كما أراه تاريخ ما أنجزه الإنسان في هذا العالم، هو في قرارة الأمر تاريخ الرجال العظام الذين عملوا فيه، هؤلاء الرجال العظام كانوا القادة، فقد كانوا القدوة، والنموذج"[3].

وذبول، وانهيار الحضارات تبدأ من الإنسان أيضاً، ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١]، ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج:٤٥]، وكثيراً ما تنتهي الآيات بقوله بما كانوا يصنعون نتيجة لأخطائهم،

---

(١) راجع (سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها) محمد هيشور: ص / ٦٣ _ ٦٨ . و (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) توفيق الواعي: ص/ ٣٣٣- ٣٤٠ .

(٢) راجع (الحضارة) حسين مؤنس: ص/ ١١٤-١١٦. و (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) توفيق يوسف الراعي: ص / ١٢٨- ١٣٠. و (سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها) محمد هيشور: ص / ٩١ ..

(٣) (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون: ص / ٨٣ .

كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

وسبب سقوط وانهيار الحضارة هو الفساد الذي يستشري على مستوى القيادة حين تتولى المسؤولية حفنة من المترفين، فيمارسون ألواناً من النشاط المدمر للحضارة، فيلحق الأمة التفكك والانحلال والفساد، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٦]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

الأمة مسؤولة عن الإصلاح:

لا تتوقف المسؤولية في الإسلام عند الصفوة المختارة بل تتحمل الجماعة المسؤولية، فالإسلام لا يكتفي بإصلاح أفرادٍ في المجتمع، بل كل أفراد المجتمع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء:١٣–١٤]، فكل فرد يتحمل مسؤولية فساد المجتمع إن هو قصر: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥]، والمجتمع أيضاً يتحمل هذه المسؤولية، ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٣٤]، ومن سمات المجتمع الإيماني أنه مجتمع يتواصى بالحق والصبر، ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر:١–٣]، فكما أن الفرد مسؤول عن أفعاله، كذلك المجتمعات

والأمـــــــم، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقـــــرة:١٤٣]، ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل:٨٩].

لا بد في النهضة الحضارية من بناء الإنسان أولاً، ولا يتم بنـاؤه إلا بالإيمان الصحيح، وما لم ننجح في ذلك ستكون الجهود - لا أقـول - ضعيفة، ومبددة، بل مدمرة ؟ .

ويمكننا أن نُلخِّص **آثار الإيمان في الإنسان الذي يبني الحضارة الإنسانية**، في الأمور التالية :

أ- الإيمان يعرِّف الإنسان بنفسه وما يحيط به:

لابد لباني الحضارة أن يعرف نفسه أولاً، ثم يعرف مهمته في هذه الحياة، ثم البيئة المحيطة به وإلا فلن يقدر على تكوين حضارة إنسانية سامية، والإنسان مخلوق في غاية التعقيد والغموض، "وتواترت الإشارات إلى جهل الإنسان بأمر نفسه ومستقبله، ومصيره، ومآلات أفعاله مع تأثره بالشهوات، والهوى، وبالضعف بحيث لا يصلح - بجهالته هذه وضعفه وهواه - بأن يتولى وضع منهج لحياته هو"[1]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٦-٧]، يحدثنا الدكتور الكسيس كاريل الطبيب المتخصص عن غموض الإنسان، فيقول: "الإنسان كل لا يتجزأ وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسر الحصول على عرض بسيط له، وليس هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزاء في وقت واحد... وكل آرائنا عنه مشربة بالفلسفة العقلية، وهذه الآراء جميعا تنهض على فيض من المعلومات غير الدقيقة بحيث يراودنا إغراء عظيم

---

(١) (الإسلام ومشكلات الحضارة) سيد قطب: ص / ٢٥ .

لنختار من بينها ما يرضينا، ويسرنا فقط، ومن ثم فإن فكرتنا عن الإنسان تختلف تبعاً لإحساساتنا، ومعتقداتنا...إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير وسطها حقيقة مجهولة"[1].

إذا كان الإنسان بهذا التعقيد فما هو تصور الغرب عنه؟

إن الغرب حين ترك دين الكنيسة، رجع إلى التراث الروماني الإغريقي، ليستمد منه مقومات نهضته، وهذا التراث يحمل في طياته فكرة خاطئة عن الإنسان، فقد كان التصور الإغريقي للإنسان يتأرجح بين اللذة، والعقلانية البحتة، ثم زاد الطين بِلَّة في العصور الحديثة بالدارونية، فنفى الفكر الغربي بادئ ذي بدء صفة الخلق عن الخالق ﷻ، فقال دارون[2]: "الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها على الخلق"، ثم ركز على حيوانية الإنسان وماديته، فهو لم يخلق إنساناً أولاً من أول لحظة، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد، وأنه مرَّ في تطوره بعدة مراحل، وحاول دارون أن يركز على أوجه الشبه أكثر من التركيز على ما تفرد به الإنسان.

وقد حاولت الدارونية الحديثة سد هذا الخلل فكتب جوليان هكسلي: "بعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً، ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً"، إذاً مازال الإنسان حيواناً في الفكر الغربي، وما يزال يتطور، وهذا له هدفان

---

(١) (الإنسان ذلك المجهول) الكسيس كاريل: ص/١٦-١٧.

(٢) دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) عالم حيوان إنجليزي، اشتهر بمذهب التطور، بدأ دراسة الطب في جامعة ادنبره (سكوتلندا) لمدة عامين ثم انصرف عنه إلى الدراسات اللاهوتية في كلية المسيح في كمبردج، ولكنه لم يتمها. راجع (موسوعة الفلسفة) البدوي: ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

رئيسيان، الأول: صراع البقاء، والثاني: الاستمتاع بالملذات، ولـذلك تحـرص الأمـم الغربيـة علـى القـوة الـتي تمكنهـا مـن البقـاء في حومـة الصراع، ولا مكان للقيم العليا مادام أنه حيـوان[1]، وهـذا هـو أسـاس نظرة الغرب إلى العلوم الإنسانية، وبهذا الجهل المطبق بالإنسان بنيـت حضارة الغرب، وتكون نتيجة الجهل بالإنسان وضع نظـام لايلائمـه، ومن ثم يعرض هذا النظام حياة الإنسان للعطب والدمار، وهـذا أمـر بدهي فلو فرضنا أننا جهلنا خصائص المادة، ثم أردنا أن نتعامل معهـا بجهلنا فالنتيجة أن تتلف المادة الـتي نتعامـل بهـا كليـاً أو جزئيـاً إن لم تحطمنا هذه المادة، ومثل هذا قد حدث في الحياة البشرية[2].

أما الإنسان في التصور الإسلامي، فهو كـائن مختلـف فهـو مخلـوق مكرم، خلق إنسانًا من أول لحظة، أكرمه الله بأن نفخ فيه مـن روحـه وأسجد له ملائكتـه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، وأكرمه بأن جعله خليفـة في الأرض، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأعطاه الأمانة الـتي أعرضـت السماوات والأرض والجبال عن حملها لثقلـها وشـدتها، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحـزاب: ٧٢] وخلقــه في أحـــسن تقويم، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ [التين: ٤]، وأكرمه بمعرفـة الخـــير والـــشر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠]، وأكرمه بـأن أعطــاه كامل الحريــة،

---

(١) راجع (حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية) محمد قطب: ص/٥١-٥٥.

(٢) راجع (الإسلام ومشكلات الحضارة) سيد قطب: ص / ٣٥- ٣٦ .

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، ثم هو بعد ذلك يستطيع أن يرتقي في سلم العبودية ليبلغ درجات الكمال الإنساني، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩]، وقد يهبط إلى الحضيض باتباع الشهوات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

ثم إن الإنسان ليس روحاً فقط، ولا جسداً فقط، ولا عقلاً فقط، بل هو مزيج من روح، وعقل، وجسد، وعواطف، وأحاسيس، ولذا نجد أن الإسلام حينما يعالج القضايا التي تمس الإنسان يعالجها من جميع الجوانب، فيخاطب عقله، ويلبي متطلباته الجسدية والعاطفية، والأشواق الروحية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ [القصص:٧٧].

والمسلم مأمور بأن يوازن بين الواجبات حتى لا يطغى جانب على جانب، زار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة، فقال ما شأنك ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال كل، قال : فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان من الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، قال: فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال النبي ﷺ: (صدق سلمان)[1].

(١) رواه البخاري في صحيحه: الأدب/٨٦، ٧/١٠٤-١٠٥.

فلا يوجد دين ولافلسفة وفَّى هذه الجوانب حقها، وأعطى الإنسان حقه مثلما أعطاه الإسلام، فقد خلق من طبيعتين، طبيعة مادية من التراب وطبيعة روحية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩]، وقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩]، أما مهمته فهي تحقيق العبودية بمعناها العام والشامل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

فإذا زكى نفسه بالعبودية تدرج في سلم العبودية؛ لأنه ما نال هذه المرتبة إلا بعد أن نفخ فيه الروح، وما نال هذه الكرامة إلا بالأمانة التي أعرضت السماوات والأرض والجبال عن حملها لثقلها وشدتها، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ ﴾ [الأحزاب:٧٢]، وبذلك نال الخلافة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ ﴾ [البقرة:٣٠]، ومن هنا سخر له الكون، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠].

أما إذا ركن إلى الشهوات، والأهواء فإن قيمة الإنسان تنحط وتهوي به في مكان سحيق: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ [الأعراف:١٧٦]، ومن ثم لا يرى في حياته إلا مظاهر الضعف والهوان، والخذلان فيقعد عن النهوض بمسؤولياته في عمارة الأرض، وإقامة الحضارة، وإذا نظر من جهة أخرى إلى كونه مكرماً فتأخذه سكرة ونشوة الكبر، وجبروت السلطان، وينسى أن هذا التكريم، والسلطان من فيض الرحمن فيسعى في الأرض ليهلك الحرث والنسل، أما المؤمن الذي اتخذ القرآن دستوراً، ومنهج حياة، "فلابد أن تقيه هذه التربية القرآنية عندئذ عن الشرود إلى أي تطرف،

أو جنوح ذات اليمين، أو ذات اليسار، فلا هو يركن إلى الخنوع والذل للآخرين، مهما تجمعت عليه أسباب الضعف، أو مظاهر الفقر والهوان، ولا هو يطمح إلى شيء من التسلط، والبغي، والطغيان، مهما أتيح له أسبابها، وتفتحت أمامه سبلها"[1].

وهكذا فالمؤمن يستمتع بالحياة ومتعها وفق حدود الله تعالى، ولا تلهيه عن مهمته بل هي من ضمن مهمته، دون أن يؤدي إلى فساد الكون، ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٧٧]، فهذا السلوك هو شكر للمنعم، ومحافظة لهذه النعم .

أما غير المؤمن فيسعى بشَرَه إلى مزيد من الملذات دون ضابط من خلق، أو وازع من دين فيؤدي إلى فساد الكون، كما هو الحاصل في زماننا.

ب ـ العمل الصالح من ثمار الإيمان:

إن الإيمان الحق إذا مس القلب أحدث انقلاباً في تصورات الإنسان وانقلاباً في المشاعر، وانقلاباً في سلوك الإنسان مع ربه، ومع نفسه ومع الآخرين، وتتجلى جمال وعظمة الإيمان الصحيح حين يتحول إلى سلوك عملي، إذ المقصود من الإيمان أن يتحول إلى سلوك عملي، ولذا فإن الجليل غالباً ما يقرن الإيمان مع العمل، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ ﴾ [البقرة:٢٥]، فالعمل الصالح جزء من الإيمان، فالمؤمن يعلم أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فيرعوي، ويجانب المعصية، وقد يقع في المعصية فيتذكر سعة رحمة الله، وأنه التواب فيبادر إلى التوبة، وعندما يوقن أن الله هو النافع الضار فلا يخشى أحداً إلا الله، وعندما يعلم أن

---

(١) (منهج الحضارة الإنسانية في القرآن) محمد سعيد رمضان البوطي: ص / ٤٦-٤٧ .

الله هو الرزاق ذو القوة المتين فلا يطلب الرزق من غيره، وهكذا يترك الإيمان أثراً بالغاً في العقل، والنفس، والوجدان، والسلوك، ولعل هذا الفهم هو الذي يرمي إليه الرسول ﷺ بقوله: (إن لله تسعة وتسعين اسماً ـ مائة إلا واحداً ـ من أحصاها دخل الجنة)[1]، وهذا هو الفهم الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم من الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل ليضحك من إياسة العباد، وقنوطهم، وقربه منهم)، قالت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أو يضحك ربنا ؟ قال: (أي والذي نفسي بيده، إنه ليضحك)، قالت: فقلت: إذاً لا يعدمنا منه خيراً إذا ضحك"[2]، وجاء في الأخبار بينا سيدنا عمر رضي الله عنه يسير في أزقة المدينة المنورة ليلاً فإذا به يسمع صوت امرأة تقول لابنتها: يا بنية اخلطي الماء باللبن، فقالت الفتاة لأمها: إن عمر نهانا عن ذلك، فقالت الأم: إن عمر لا يرانا، فقالت الفتاة: إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا[3].

فالعمل الصالح ما هو إلا ثمرة بدهية للإيمان الصحيح، ومن لوازمه، فكيف يستقيم أمر الدنيا بدون الإيمان، حب الله، وخشيته ؟ لاشك أن الإنسان في هذه الحالة سيفقد الثقة بأقرب الناس إليه؛ لأن القانون الذي سيسود المصلحة، والنفعية، ولا شك أننا لا نستطيع أن نعيش في مجتمع مادي بحت، لا تحكمه قيم عليا، وقيام الحضارة الإنسانية لايتم إلا من خلال سيادة القيم، والعمل الدؤوب، وهذا ما يكفله الإيمان الصحيح .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : الذكر / ٢ ، ٤/ ٢٠٦٣، ح (٢٦٧٧) .
(٢) رواه ابن خزيمة في التوحيد : ٢ / ٥٧٤، ح(٣٣٧) .قال محقق الكتاب إسناده ضعيف لوجوه عدة ، وقد روي بمعناه بأسانيد صحيحة .
(٣) راجع (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) ابن الجوزي: ص/ ٩٥.

ج ـ الإيمان يعطي دفعة قوية لحركة الحياة والعمل :

إن الإيمان يعطي دفعة قوية لحركة الحياة، والعمل، ويضفي قدسية على الحياة ليكون لها معنى سامٍ باعتبارها مزرعة الآخرة، لذلك فالفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦]، فالعمل عبادة ما دامت النية صادقة، وبهذا يكون الإنسان في عبادة سواء كان يعمل في المصنع، أوفي المزرعة، أو في الجامعة، أو في التجارة، أو في أي درب من دروب الحياة، وهذا يعطي الإنسان طاقة لا تنفد، وعطاء لا يعرف له حد، أو زمن يقف عنده، إنه الإيمان الذي يسبغ على العمل صفة قدسية باعتباره عبادة لله تعالى إذا صلحت النية، وهكذا يتحول كسب المؤمن وفق منظور الإيمان إلى أرفع أنواع العبادة، فقد عدَّ الرسول ﷺ العاملين ـ الذين يسعون لسد حاجتهم وحاجة من يعولونهم ـ ساعين في سبيل الله، فقد مر الرسول ﷺ برجل فرأى الصحابة من قوَّته وجلده ونشاطه، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله، فقال الرسول ﷺ: (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يُعفِّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)[1].

---

(١) رواه الطبراني في ، المعجم الكبير ، ح(٢٨٢) ، ١٢٩/١٩ ، وقال المنذري : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، الترغيب والترهيب ، ح(٢٥١٦)، ٢ / ٥١٣ ـ ٥١٤ .

إن كل عمل نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات إذا صحت النية ـ ما دام قصد فاعله الخير لا رغبة في الثناء، واكتساب السمعة الزائفة عند الناس ـ، كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يسد رمق محروم، أو يهدي حائراً، أو يعلم جاهلاً، أو يميط أذى من الطريق فهو عبادة، وقربة، قال رسول الله ﷺ عن الإصلاح بين المتخاصمين: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة، قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة)، وفي رواية، (لا أقول تحلق الرأس ولكن تحلق الدين)[1]، حتى أصغر الأعمال فيها أجر كما أخبر المصطفى ﷺ، فقال: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة)[2]، وتظهر الدراسات النفسية "أن العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية لدى الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف (أنا) الفرد، ثم توجه هذه الطاقة تبعاً لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع وتبعاً للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ"[3].

وهكذا تتحول الحياة إلى عبادة في مفهوم الإسلام إذا راعى المسلم هذا الجانب، وإن لم يكن في المسجد، وبهذا المفهوم تبنى الحضارة الإنسانية السامية، وفي ظل الإيمان يكون للعمل قدسية، وهذا يعطي المؤمن قوة إضافية ودافعاً جديدا للعمل.

---

(١) رواه الترمذي في سننه : البر/٥٦ ، ٤ / ٦٦٣- ٦٦٤ . ح (٢٥٠٩) . وقال : هذا حديث صحيح .

(٢) رواه الترمذي في سننه : البر / ٣٦ ، ٤ / ٣٣٩ - ٣٤٠ . ح (١٩٥٦) . وقال هذا حديث حسن غريب

(٣) (ميلاد مجتمع) مالك بن نبي : ص/ ٧٤.

ولعل أعظم درس تعلمته أوربا من المسلمين الرغبة في الحياة، ففي الوقت الذي نشر البيروني[1] للفكر العالمي دوران الأرض حول الشمس، واكتشف ابن الهيثم[2] قوانين الرؤية، وأجرى التجارب بالمرايا والعدسات المستديرة والأسطوانية المخروطية، ففي حين كان العالم الإسلامي يسرع نحو القمة وعصره الذهبي، وقف الغرب مذهولاً، وقد تولاه الفزع، ويترقب نهاية العالم عما قريب، ويعظ القيصر (أوتو الثالث)[3] ـ الشاب، وهو ابن عشرين ربيعاً ـ الناس فيقول: "والآن سيأتي المسيح، ويحضر الناس ليقتص من هذا العالم"[4]، فقد أصبح في الغرب "استخدام العقل للبحث في الطبيعة وعجائبها بدلاً من الاهتمام بتعاليم الديانة الجديدة وأبحاثها يُنظر إليه على أنه إساءة لاستخدام القوى التي منحنا إياها الله، ويدعم الأب (لاكنانتيوس) هذا الرأي قائلاً: لو كان هناك احتمال للوصول إلى الحقيقة عن طريق البحث والدراسة، لكنا قد توصلنا إليها منذ زمن بعيد، وبما أنه لم يُتَوصل إليها برغم ما ضاع في سبيل ذلك من وقت وجهد، فمن الواضح الجلي إذاً أن الحكمة والحقيقة لا وجود لهما"[5]، ومن هنا أصبح كل شيء يمت إلى العلم يوصف بأنه شر مستطير، "وبينما(جريدة كولونيا

---

(١) محمد بن أحمد ، أبو الريحان البيروني الخوارزمي (٣٦٢ـ ٤٤٠ هـ) فيلسوف رياضي مؤرخ من أهل خوارزم. راجع (الأعلام) الزركلي: ٥/ ٣١٤ .

(٢) محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي (٣٥٤ ـ نحو ٤٣٠ هـ) مهندس من أهل البصرة، يلقب ببطليموس الثاني، له تصانيف في الهندسة، وكتبه تزيد على سبعين. راجع (الأعلام) الزركلي : ٦/ ٨٣ـ ٨٤ .

(٣) أوتو الثالث (٩٨٠ ـ ١٠٠٢م) توج إمبراطوراً سنة ٩٩٦م وأقام في روما بعد سنة ٩٩٨م، وأخذ يسلك مسلك إمبراطور روماني قديم الأمر الذي نفر أهل ألمانيا وإيطاليا منه، وفي سنة ١٠٠١ م أجبره جمهور من رعاع روما على الهرب إلى صقليا حتى توفي. راجع (الموسوعة العربية الميسرة) : ص/ ٢٥٥ .

(٤) راجع (شمس العرب تستطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٣٥٤.

(٥) (شمس العرب تسطع على الغرب) زيغريد هنكه: ص/ ٣٦١ .

الألمانية) تصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز في عددها الصادر يوم ٢٨ مارس١٨١٩م، بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهي كانت شوارع قرطبة حوالي عام ٩٥٠م، تزدان بثمانين ألف متجر، وتضاء ليلاً بمصابيح ثبتت على حيطان المنازل، وتباشر فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران"[١] .

د ـ الإيمان سبب السعادة الحقيقية والراحة والطمأنينة :

الإنسان المتشائم الشقي، والمحزون المكلوم، لا قدرة له على العطاء؛ لأن الحياة في نظره لا تستحق كل هذا العناء، فالمحزون المتشائم لا يمكن أن يقيم حضارة، بل الذي يقيم الحضارة هو السعيد المتفائل، الذي يرى في المستقبل غداً مشرقاً، والإيمان هو الباعث على الرضا والطمأنينة؛ لأن "القلب لا يصلح ولا ينعم، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة الله وحده، وحبه، والإنابة إليه"[٢]، فالإنسان مهما أوتي من أمر الدنيا فإذا ظل بعيداً عن الله فلن يجد راحة ولا طمأنينة؛ لأن الإنسان مركب من الجسد والروح، فكما أن للجسد متطلبات وغذاء فكذلك للروح غذاء، فالإيمان هو الذي يغذي جانب الروح، والسعادة والطمأنينة ضروريتان لعطاء الإنسان، وإبداعه، لإعمار الكون، فالمؤمن متفائل أبداً، واثق بكرم مولاه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤]، و قَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨]، "إن الذي يؤمن بالله لا يتسرب إليه اليأس في حال من الأحوال، فإذا ضاقت عليه الحياة، وانقطعت عنه الأسباب المادية جميعها، فإن عين الله لا تغفل عنه، ولا

---

(١) (شمس العرب تستطع الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٤٩٩ .

(٢) (العبودية) ابن تيمية: ص / ٤٧ .

تسلمه إلى نفسه، فلا يزال يبذل الجهود المتتابعة متوكلاً على الله مستمداً منه المعونة في جميع أحواله، وهذا ما يفسر انعدام الانتحار بين المؤمنين، وكثرته بين الملحدين الكافرين"[١].

ثم إن "العقل سند الحقيقة الدينية، وبرهانها، كما كان الإيمان أصل توجهها إلى مناهج السلوك التي تتناول بها العناصر الطبيعة على الصورة المباحة في ذلك، وترفض أن تتناولها على الصور غير المباحة، وهذا هو الذي أخمد في نفس الفرد نيران المعارك الحامية التي كانت قائمة بين العقل والدين، وبين العلم والدين، وبين الدين والمدنية"[٢]، ومن هذا الجانب ـ وهو جانب مهم ـ يشعر المؤمن بالانسجام والراحة والطمأنينة، ولا يعرف حقيقة هذه النعمة إلا من فقدها، فالذين يعيشون في ظل عقيدة مهتزة، غير يقينية، يعيشون في قلق واضطراب، ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى:١٤].

وهكذا إذا لامس الإيمان شغاف القلوب أغناها وأسعدها، وزرع فيها الثبات، والطمأنينة، والثقة بما عند الله، والفرح بالله، والأنس به حتى في أحلك الأوقات، وعند الملمات والخطوب.

هـ ـ الإيمان يورث الصبر، وهو الزاد لتحمل أعباء الحياة :

بناء الحضارة ليس بالأمر الهين بل يحتاج إلى تعب، وعمل جاد، وصبر، فالحضارة إذاً لا تبنى إلا على سواعد رجال قد وطنوا أنفسهم على الصبر، وتحمل المشاق في سبيل رفع راية الأمة، وهم بحاجة إلى الصبر حتى بعد بناء الحضارة لئلا يبطروا ولا يعصوا الله .

---

(١) (معالم الثقافة الإسلامية) عبد الكريم عثمان: ص / ٤٠ .

(٢) (روح الحضارة الإسلامية) محمد الفاضل بن عاشور: ص / ٢٨ .

والإيمان هو الزاد لتحمل أعباء الحياة؛ لأن الحياة مليئة بمتاعب كثيرة، والإيمان هو الذي يعطي الإنسان الصبر على لأواء الحياة، وبلائها، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: (الصبر والسماحة)[1]، والعبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، فلا يخلو الصبر من نوعين: فالحياة إما بلاء ومشقة ومرض فيحتاج المؤمن إلى صبر حتى لا ييأس ولا يقنط، وإما صحة ومتاع دنيا فيحتاج إلى صبر حتى لا يبطر، ولا يطغى، ولا يركن إليها، فهو في جميع الأحوال يراعي حق الله تعالى.

والمؤمن يعلم حق العلم أن الدنيا دار ابتلاء، ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:٢]، وقد أعد الله للصابرين أجراً عظيماً، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥]، ويستقل المؤمن كل المتاعب في جنب الله لما أعده الله تعالى من الأجر الجزيل للصابرين، وهكذا يثبت المؤمن على خط واحد في اليسر والعسر، شكر في النعمة، وصبر في المصيبة، وفي الحديث (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له)[2]، كما أن الإمامة لا تنال إلا بالصبر، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤].

---

(١) رواه البيهقي (الجامع لشعب الإيمان) ، ح (٩٢٦٢) ، ٢١٢/١٧ . وقال المحقق مختار أحمد الندوي: حديث حسن .

(٢) رواه مسلم في صحيحه : الزهد / ١٣، ح (٢٩٩٩) ، ٤ / ٢٢٩٥ .

و- الإيمان يورث العزة:

العزة، والأنفة، والاعتزاز صفات ضرورية للصفوة؛ لأنهم لا يرضون بسفساف الأمور، ولا بالذل لهم ولا لأمتهم، والعزة هي الروح الوثابة التي تشحذ الهمم لبلوغ الثريا، لتعلي من شأن الأمة، وابن خلدون رأى في العصبية روح تجديد، بينما شبنجلر رأى ذلك في الروح النابضة كما مرَّ بنا، وإذا لم تكنٍ هذه الروح الوثابة في الإيمان وآثاره مثل العزة والأنفة التي تدعو دائماً إلى التميز فبماذا تكون ؟

إن الإيمان يرفع المؤمنين إلى قمة سامقة، وهذا أجمل وأصدق ما في الإيمان الحق، حين يدركه الناس على حقيقته، وحين يصبحون هم حقيقته التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨]، ففي هذه الآية الكريمة، "يضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جنابه، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء، وهذا هو الصف العزيز! .

وصدق الله، فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون، ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان، ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة"[١] .

ولذلك رغم تتلمذ المسلمين في بدء الحركة العلمية - في الجانب المادي والتنظيمي - على الحضارات الأخرى ريثما يكتسبون حاستهم الخاصة في المجال العلمي، كانت قلوبهم ونفوسهم مليئة بالإيمان

---

(١) (في ظلال القرآن) سيد قطب: ٦ / ٣٥٨٠ .

والاعتزاز به، ولذلك لا نعجب إذا رأينا المسلمين الأوائل لم يترجموا المسرح والأدب الإغريقي؛ لأنه كان مشحوناً بالشرك، والوثنية، والأساطير، والخرافة، رغم ترجمتهم كثيراً من المؤلفات الإغريقية؛ لأنهم رأوا فيه أموراً تافهة لا تستحق الاهتمام .

ومن هذا المنطلق الإيماني "قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم كأبي حامد الغزالي، وأبي الفرج ابن الجوزي وغيرهما: إن هذه الصناعات كالفلاحة، والنساجة، والبناية فرض على الكفاية فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها"[1]، إن الروح الوثابة في الحضارة الإيمانية التي يرى أبناؤها أن استكمال الجوانب المختلفة في الحضارة واجب ديني من أعظم العوامل لنهضة الأمة.

ز- الإيمان يورث المحبة بين المؤمنين:

الحضارة تنشأ في مجتمع، ولا بد في شروط النهضة أن يكون المجتمع مترابطاً، وأقوى الروابط هي التي تقوم على الحب بين أفراد المجتمع، ولا يمكن بناء حضارة إنسانية من أفراد يسود بينهم الكره والحقد، إذ لا بد لصناع الحضارة أن يعملوا كفريق واحد مترابط، وهذا لا يتحقق إلا بالحب، بأَنْ يحب بعضهم بعضاً، ويتفانى كل أفراد الفريق بأن يسد كل واحد منهم ثغرة، وبهذه الروح الحية النابضة تبنى الحضارة.

ويرى توينبي أن من أسباب سقوط الحضارة أن الصفوة تفقد روح التآلف والوحدة، فقال: "فإذا أصاب الصفوة تصدع أو تدهور ففي حالات الهيئات الحاكمة لا تزال الجماعة بخير من الناحية السياسية ما دامت هذه الجماعة متحدة، أو متآلفة على الأقل، وفي هذه الحالة لا تتأثر الجماعة كثيراً بما نزل بها من خطوب، ما دامت صفوتها القائدة

---

(١) (الحسبة) ابن تيمية: ص/ ٢٨.

سليمة، ولكن البلاء يأتي عندما تصاب هذه الصفوة، أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها، فتختلف كلمتها، وتعجز عن القيادة"[1].

أقول: إن أعظم الحب وأخلصه، هو الحب في الله، وهو ثمرة من أعظم ثمار الإيمان، وهو نعمة إلهية، وإشراقة ربانية، ونور يقذفه الله في قلوب المؤمنين، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٣]، وفي الحديث: (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[2]، ومن هذه الركيزة الإيمانية أصبح المجتمع الإسلامي يشكل لحمة واحدة، كجسد واحد، (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[3]. وقد مثل الرسول ﷺ المجتمع الإسلامي كبناء محكم مترابط يشد بعضه بعضاً؛ لأنه مجتمع إيماني يسوده الحب في الله، (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُهُ بعضاً)، وشبَّك ﷺ أصابعه[4]. فالمؤمنون يشكلون الحجارة القوية في هذا البناء، والإيمان يشكل الرابط الذي يربط هذا البناء، ولولا هذا الرابط لظلت الأحجار متناثرة لا تشكل بناء، فالإيمان هو الذي وحد بينهم، وألف بين قلوبهم، وبه نشأ البنيان وقوي، وهذا الترابط والقوة ضرورية لعملية البناءِ الحضاريِّ.

---

(١) (الحضارة)حسين مؤنس : ص/ ١٣٠ . وراجع (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) توفيق الواعي: ص / ١٩٢-١٣٠

(٢) رواه مسلم في صحيحه : الإيمان / ٢٢، ح (٥٤)، ١/ ٧٤ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : البر / ١٧ ، ح (٢٥٨٦)، ٤/ ١٩٩٩- ٢٠٠٠، .

(٤) رواه البخاري في صحيحه: الصلاة / ٨٨، ١ / ١٢٣. و الترمذي في سننه : البر / ١٨، ح(١٩٢٨) ، ٤/ ٣٢٥. و النسائي : الزكاة / ٦٧، ٥/ ٧٩. و أحمد في مسنده: ٤ / ٤٠٥.

لم يعرف المجتمع الإسلامي الطبقية المقيتة كما في الديانة الهندوسية، أو كما عاشته أوربا في العصور الوسطى؛ لأن المجتمع بني على أساس أخوة الدين والعقيدة، ولما أظهرت النعرة الطبقية رأسها في المجتمع قضى عليها رسول الله ﷺ في مهدها، فلما عيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه قال له النبي ﷺ: أعيَّرتَه بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية[1] .

ح ـ الإيمان يورث الشجاعة :

لا شك أن الأمم التي يتحلى أفرادها بالشجاعة والبسالة والإقدام أقدر على التغلب وانتزاع الملك مما في أيدي سواهم من الأمم[2]، والإيمان كما مرَّ بنا يولد قوة إضافية للعمل، كما يولد لدى الفرد جملة من الفضائل الكريمة منها: الجرأة والشجاعة والإقدام، والشجاعة مطلوبة في كل ميادين الحياة؛ لأن الإيمان يغرس في النفوس أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى، فما دام متوكلاً عليه معتمداً عليه فلا يرهب باطلاً، ولا يخشى ظالماً، والثقة بالله ورجاء ما عنده كنز من الآمال الصادقة لا ينفد ولا يزول، ولا يعرف اليأس والقنوط، فلو تقطعت بالمؤمن السبل جميعاً يعلم أن الله لا يخذله، ولو وقف أهل الأرض جميعاً في وجهه لا ينقطع رجاؤه بالله، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٥٦]، والصفوة المختارة يتطلب منها الشجاعة لأمرين مهمين:

الأول: الشجاعة مطلوبة لاستنهاض الأمة للانبعاث الحضاري، وذلك يقتضي المواجهة مع القوم، وتَلْقَى الصفوة في سبيل ذلك الويلات، ولا يصمد إلا من كان عنده الشجاعة، والصبر على البلاء،

(١) رواه البخاري في صحيحه : الإيمان / ٢٢، ١/ ١٣. ومسلم في صحيحه: الإيمان/ ١٠، ح (١٦٦١) ، ٣/ ١٢٨٢-١٢٨٣.

(٢) راجع (مقدمة ابن خلدون) ابن خلدون : ص / ٩٨- ٩٩ .

وفي سير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ خير دليل على ذلك، فسيدنا رسول الله ﷺ لم تلن له قناة وهو يدعو قومه، مع ما لاقاه من صد وإعراض، وإيذاء، وهاهو سيدنا هود عليه السلام يقف موقفاً لا يمكن أن يصمد فيه إلا المؤمن الشجاع، قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٣-٥٦]، "إن الإنسان ليندهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي، ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس، يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم، ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم... ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل، والأسباب، إنه الإيمان، والثقة، والاطمئنان.. الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره "[١].

ثانياً: الشجاعة مطلوبة للمحافظة على الحضارة والدولة، والمنجزات الحضارية، ففي يوم بدر الكبرى حرض الرسول ﷺ المسلمين على القتال، قال أنس: فقال رسول الله ﷺ: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) قال : يقول عُمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال:(نعم) قال: بخ بخ، فقال: رسول الله ﷺ : (ما يحملك على قولك بخ بخ)، قال: لا

---

(١) (في ظلال القرآن) سيد قطب : ٤ / ١٨٩٩.

والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكـون مـن أهلـها، قـال: (فإنـك مـن أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثـم قـال: لـئن أنـا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[1].

***

(١) رواه مسلم في صحيحه : كتاب الإمارة / ٤١ ، ح (١٩٠١) ، ٣ / ١٥٠٩-١٥١١.

المبحث الثاني ـ القوانين الإسلامية التي تنظم المجتمع

إن الحضارة نتاج جماعي، بمعنى أن الفرد وحده لا ينشئ حضارة، وإنما تتكون الحضارة في مجتمع، فلكي تنشأ تتطلب قدراً كبيراً من التعاون الجماعي، وهذا يعني أنه لا بد من نظام فعال يربط بين أفراد المجتمع حتى يتم التعاون، ويحدد عمل كل فرد، وواجباته، وإلا كانوا كأمثال اللبنات المتناثرة التي لا تشكل بنياناً، ولابد أن يكون هذا النظام مناسباً لفطرة الإنسان؛ لأن النُّظم التي لا تراعي الفطرة تكون مدمرة، فلا يمكن قيام حضارة في كنف الديانة النصرانية؛ لأنها تحتقر الأشياء التي نسميها خيرات في هذا العالم، وتدعونا إلى أن نشتغل بالعبادة دائماً، وتقتل فينا كل ميل دنيوي حتى تموت فينا كل رغبة دنيوية[1]، وكذا الديانة البوذية والهندوسية.

والذي تقتضيه مصلحة العمران الإنساني ألا تبقى قوى الإيمان قصراً على الأفراد، وداخل نفوس أشخاص معينة، وأماكن محدودة كالمساجد، وفي مناسبات خاصة كالمآتم، فهذه حالة سلبية للإيمان، ولكن أن يصبح شعار الناس العملي، وهتافهم الداخلي، فيحدث الترابط الاجتماعي، ويصبح الإيمان مقياساً لعلاقات الناس، وبهذه المواصفات يحدث الإيمان في حياة الأمم أنواعاً من التجانس والتوازن، فيخرج إلى الواقع حضارة إنسانية صادرة عن رغبة جماعية شريفة تحقق غاية الإنسان، وأهدافه[2].

إن جوهر فلسفة النظام الإسلامي يتمثل في نظرية الخلافة التي تحقق مبادئ ومقاصد الاستخلاف الإلهي للإنسان في حمل الأمانة التي هي إقامة الحضارة الإنسانية السامية، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

(١) راجع (المشكلة الأخلاقية و الفلاسفة) أندرسون كرسون: ص/ ١١٥.
(٢) (الحضارة الإسلامية أسسها وميادينها) أبو الأعلى المودودي: ص/ ١٠٣.

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]، واقتضى اللطف الإلهي تقويم مسيرة الإنسان على طريق الاستخلاف بالنبوات، والرسالات، والشرائع السماوية منذ بدء الرسالات وحتى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

"إن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة، فيقوم على هذه الشريعة نظام، ومن العقيدة والشريعة والنظام تتكون شجرة الإسلام، كما تتكون كل شجرة، من جذر، وساق، وثمرة، فلا ساق، ولا ثمار بلا جذور ضاربة في الأعماق، ولا قيمة لجذور لا تنبت ساقاً، ولا جدوى في ساق لا تعطي أكلها للحياة"[1]، هذا النظام المتكامل هو نظام رباني اختاره الله لعباده، ليقيموا الحضارة الإنسانية السامية، ولينظم حياتهم كما نظم أمر هذا الكون، لينعموا بالسعادة في ظله، بعيداً عن أهواء البشر، ونظراتهم القاصرة، وامتاز هذا النظام بالعدالة، وموافقته للفطرة، وتلبية متطلبات الإنسان الروحية والجسدية، والمساواة بين الناس، ونظَّم الإسلام "العلاقة بين الفرد والمجتمع تنظيماً فريداً في بابه لم يسبق إليه، فالفرد محصن ضد التحقير، أو التصغير، أو العدوان عليه، أو الذوبان في أنظمة ترفضها الطبيعة الإنسانية، وهو مع ذلك غير مسموح له بأن يتجاوز حدوده إلى المدى الذي يلحق فيه الضرر بالآخرين، ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة:٣٢]، هذا والمجتمع مُلزم بحماية الفرد والحفاظ عليه وتأمين السلام له، وتيسير سبيل الحياة الكريمة في نطاق التعاطف والحب اللذين أشاعهما الإسلام، وفي نطاق ما فرض على الأغنياء من واجبات أصبحت حقوقاً للفقراء ... ومن

---

(١) (دراسات إسلامية) سيد قطب: ص / ٢٨ . وراجع (الإسلام ومشكلات الحضارة) سيد قطب: ص / ١٨٧.

هنا كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً أصيلاً في ذاته، سامياً بصفاته، صافياً في جوهره"[1]، إن هذه الحقائق أدركها حتى بعض عقلاء الغربيين، من أمثال (برناردشو)[2] حيث قال: إن الرجل العالم يميل بطبعه إلى الإسلام؛ لأنه الدين الوحيد الذي ينظر إلى أمور الدنيا والآخرة سواء، وقال أيضاً: قد وضعت دائماً دين محمد ﷺ موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس، ولقد تنبأت بأن دين محمد ﷺ سيكون مقبولاً لدى أوربا غداً، ولقد بدا كونه مقبولاً لديهم اليوم[3].

ومن جهة أخرى لا استقامة لأمر الدين والدنيا إلا بالإيمان، فحاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، فالإنسان اجتماعي بطبعه، ولا بد لأي مجتمع من قيم وأخلاق تحكمه حتى يتمكن المرء من العيش فيه، ولا يمكن أن يكون للأخلاق أية قيمة إلا من خلال الإيمان، بمعنى أن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو مصدر الإلزام، وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يقول ألكسس كاريل:" فالفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى

---

(١) (معالم الحضارة الإسلامية) مصطفى الشكعة: ص / ٣٤.(١٩٨٢م)

(٢) جورج برنارد شو (١٨٥٦ ـ ١٩٥٠م) كاتب ومفكر إنجليزي من أصل إيرلندي، له مؤلفات ومسرحيات عديدة. راجع (دائرة المعارف الحديثة) عطية الله أحمد : ١/ ٣١٧.

(٣) راجع (الإسلام و الرسول في نظر منصفي الشرق و الغرب) أحمد آل بوطامي: ص/ ١٣٠ - ١٣١.

قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية"[1]، وقد أقام فيلسوف الواجب الأخلاقي (عمانوئيل كانط)[2] الأخلاق على العقل، ولكنه أدرك قوة الإيمان في الالتزام بالأخلاق، حيث عاد أخيراً وأقر به في آخر كتابه (نقد العقل العملي) بقوله: "إن القوانين الأخلاقية تقودنا من خلال مفهوم الخير الأعلى بوصفه موضوع العقل العملي المجرد، وغايته النهائية إلى الدين، أي إلى الاعتراف بجميع الواجبات كأوامر إلهية "[3].

ولا يمكن قيام حضارة إنسانية، إلا على أسس من الأخلاق، فإذا فسدت الأخلاق انهارت الحضارة، يقول أحمد شوقي[4]:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[5].

فالحضارات تنطلق بدوافع عقدية يصدر عنها سلوك الإنسان، وأعماله، وسيرته في الحياة، وعنها تنشأ جميع نظم الأمة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وبقدر ما يكون الإيمان مستقراً والإرادة قوية تكون أعمال الإنسان منظمة، ملتزمة بهذه النظم، وذات فعالية، وعلى قدر ما يكون إيمانه متذبذباً، وإرادته ضعيفة يأتي عمله غير متقن، وأخلاقه وسلوكه متناقضة، ولا يكون لحياته نظام متزن وثابت[6].

---

(١) (تأملات في سلوك الإنسان) : ص / ١٤٠ .

(٢) عمانوئيل كانط (١٧٢٤ـ ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني، ولد بمدينة كونيجسبرج، عرف عنه غزارة التأليف، من أشهر كتبه (نقد العقل المجرد)، ونقد العقل العملي). راجع (كانط) أوفي شولتز: ص/١١ـ٥٤.

(٣) (نقد العقل العملي) عمانوئيل كانط : ص / ٢٢٠ .

(٤) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، (١٢٨٥ـ١٣٥١هـ) أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة. راجع (الأعلام) الزركلي: ١/ ١٣٦ـ١٣٧.

(٥) (الشوقيات) : ١ / ١٩.

(٦) راجع (الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها) أبو الأعلى المودودي: ص/ ٤ـ٥، ٩٠.

وتطبيق حكم الله تعالى ثمرة من ثمار الإيمان، "كـان القـرآن الكـريم وهـو يـبني العقيـدة في ضـمائر الجماعـة المسلمة، كـان يخـوض بهـذه الجماعة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضـميرها، وأخلاقهـا، وواقعهـا، ومـن ثم ظهر بنـاء العقيـدة لا في صـورة (لاهـوت)، ولا في صـورة (جـدل كلامي)، وإنما في صورة تجمع عضوي حيوي، وتكوين تنظـيم مباشـر للحياة ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها، وكـان نمـو الجماعـة المـسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور"[1].

ولمـا اسـتحكم الإيمـان في النفـوس استـسلمت لأمـر الله، وتلقـت التشريعات بالقبول والرضـا، فأبطلـت جميـع عـادات الجاهليـة بآيـات قرآنية، أو بتوجيهات نبوية، في حين عجزت أمريكا بقضها وقضيضها أن تمنع الخمر، ومن أجل تنفيذ قانون منع الخمر في الولايـات المتحـدة الأمريكية قدرت نشرات النشر والإذاعة بلغت تكاليفها من لـدن بـدء الحركة إلى سنة ١٩٢٥م مبلغ خمسة وستين مليون دولار، وبلـغ عـدد الصفحات الـتي سـودت لبيـان مـساوئ الخمـر والزجـر عنهـا ملايـين الصفحات، أما ما تحملته الأمة الأمريكية خلال أربعة عشر عامـاً مـن النفقات الباهظة لأجل تنفيـذ قـانون التحـريم فقـدر مجموعهـا بأربعـة ملايين ونصف مليون جنيه، وقتـل في سـبيل تنفيـذ هـذا القـانون مئتـا نسمة، وسجن نصف مليون إنسان، وغرم الجناة ما يزيد علـى نـصف مليون جنيه، وصودر من أملاك المنحرفين ما يساوي أربعمائـة مليـون جنيه، وكانت كل هذه الأموال مـن أجـل تعلـيم أمريكـا المتحـضرة ـ عاصمة الحضارة الغربية ذات الإعلام الغزير، والوسائل المادية الخارقة، والمنـاهج الاجتماعيـة العظيمـة ـ أضـرار الخمـر الـصحية، وفي الأخـير

---

(١) (دراسات في الحضارة الإسلامية) أحمد الشريف: ص / ٩٦.

خابت الأمة في تحقيق بغيتها، والوصول إلى أهدافها فأباحت الخمر لا لأنها أدركت أنه ليس للخمر أضرار بل ازدادت يقيناً بمضارها، بل تبين لها زيادة عدد المدمنين حتى بين الأطفال، وازداد عدد الحانات والمصانع السرية أضعافاً مضاعفة، وكثرت الجريمة[1].

وهكذا ارتبط تحكيم الشريعة بالإيمان، وأصبح محك الإيمان التحاكم إلى الشريعة، ومن علامات الكفر الإعراض عن شريعة الله تعالى، والحكم بغير ما أنزل الله، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:٦٠]، فليس الإيمان بالتمني، وليس فقط كلمة تتردد على الألسنة، إنما الإيمان هو الاعتقاد الراسخ في القلب والوجدان، فتنطق به الأفواه، ويترجم ذلك إلى واقع سلوكي يتوجه فيه الفرد بالعبادة لله تعالى، ويلتزم بشريعته وحدها دون غيرها، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، سأل أبو رزين رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله وما الإيمان ؟ قال: (أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحرق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله، وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله عز وجل، فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك، كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ)، قلت: يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أني مؤمن ؟ قال: (ما من أمتي ـ أو هذه الأمة ـ عبد يعمل حسنة فيعلم أنها حسنة،

---

(١) راجع (نحن و الحضارة الغربية) أبو الأعلى المودودي: ص/ ٥٧-٦٥ .

وأن الله ﷻ جازيه بها خيراً، ولا يعمل سيئة فيعلم أنها سيئة، واستغفر الله ﷻ منها، ويعلم أنه لا يغفر إلا هو، إلا وهو مؤمن)[1].

وهكذا فإن تحكيم الشريعة تطبيقاً والتزاماً يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإيمان، ولا يخفى ما للنظم الشرعية من أثر بالغ في قيام الحضارة، وتقدمها، وبقائها .

***

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده : ٤ / ١١ـ ١٢ ، وابن بطة في (الإبانة): باب فضائل الإيمان، ح(٨٥١)، المجلد الأول، ٢/ ٦٥٩ـ٦٦٠. وفي مجمع الزوائد: ١/ ٥٣ـ ٥٤ : في إسناده سليمان ين موسى وقد وثقه ابن معين و أبوحاتم، وضعفه آخرون، وفي (تقريب التهذيب) : ١/ ٣٣١:"سليمان بن موسى الأموي مولاهم الدمشقي صدوق فقيه ، في حديثه بعض لين، وخلط قبل موته بقليل".

المبحث الثالث ـ الإيمان يشعر المؤمن بأهمية الزمن

الزمن نهر قديم يعبر العالم! فهو يمر خلال المدن يغذي نشاطها بطاقته، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، ولكنه في مجال ما يصير (ثروة)، وفي مجال آخر يتحول عدماً، ولكنه نهر صامت حتى إننا ننساه أحياناً، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة، أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض[1]، ولا تبنى الحضارات إلا من خلال فترة الزمن، والوعي لا يحصل في طرفة عين نتيجة لتفتح مفاجئ في الذهن، والتاريخ يتكون من حوادث وبدون حوادث فلا تاريخ، والأمة الجادة هي التي يستثمر أفرادها كل لحظة من أوقاتهم ولا يفوتون منها شيئاً، بينما الأمة الغافلة لا يشعر أفرادها بقيمة الزمن، ويذهب كله هدراً دون جدوى.

وتظهر قيمة الزمن عند المؤمن لأمور عدة منها :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب الدهر فيجب تقديره وعدم سبه، فقد جاء في الحديث القدسي قال رسول الله ﷺ: (قال الله يسب بنو آدم الدهر، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار)[2]، قال العلماء: فمن سب الدهر واعتقد أنه الفاعل فقد أخطأ، فإن الله هو الفاعل؛ لأنه هو مقلب الدهر ولذلك عقب بقوله: (بيدي الليل والنهار)[3].

ثانياً: أقسم الله بالزمن تنبيهاً إلى قيمته وأهميته في أمر الحياة، فقد أقسم به في مختلف أطواره، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [الليل:١]، وقال: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ٢ ﴾ [الفجر:١-٢]، وقال: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴾ [الضحى:١-٢]، وقال: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ

---

(١) راجع (شروط النهضة) مالك بن نبي: ص / ١٤٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه : الأدب / ١٠١، ٧/ ١١٥.

(٣) راجع (فتح الباري) ابن حجر : ١٠/ ٥٦٥ .

ﭐلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ [العصر:١-٢]، قال الفخر الرازي في تفسير الآية: أقسم الله تعالى بالعصر أي بالدهر؛ لأن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، فلو ضيعت ألف سنة، ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ [الفرقان:٦٢][١]، وقد امتن الله ﷻ على الإنسان بنعمة الليل و النهار ـ الزمن ـ فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢]، أشار في ختام الآيات إلى أن تلك النعم فيها آيات بالغة عند الذين يعقلون، ويتدبرون، وفي الحديث: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[٢]، فالزمن نعمة جُلَّى، ومنحة كبرى لا يدركها إلا المؤمنون الموفقون الأفذاذ، فهو الظرف الذي يملأ بالباقيات الصالحات.

ثالثاً: على المؤمن أن يحترم الوقت لأنه الظرف الذي يملأ بالباقيات الصالحات، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهذه النعمة العظيمة سيسأل الله عبيده عنها يوم القيامة، وفي الحديث (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عُمْره فيما أفناه، وعن علمه فِيمَ فَعَلَ، وعن ماله من أين اكتسبه و فِيمَ أنفقه، وعن جسمه فِيمَ أبلاه)[٣]، عن أبي هريرة

(١) راجع (التفسير الكبير) الرازي: ١١/ ٢٧٧.
(٢) رواه البخاري في صحيحه : الرقائق / ١ ، ٧/ ١٧٠.
(٣) رواه الترمذي في سننه : القيامة / ١، ح(٢٤١٧) ، ٤/ ٦١٢. وقال هذا حديث حسن صحيح .

ﷺ عن النبي ﷺ قال: (أَعْذَرَ الله إلى امرئ أخَّر أجلَهُ حتى بلَّغَهُ ستين سنة)[1]، أي أزال عُذْرَه و لم يُبْقِ له موضعاً للاعتذار، إذ أمهله طول هذه المدة المديدة من العُمُر، المؤمن يعلم ما للزمن في حياته من أهمية قصوى فهو من أغلى ما وهبه الله إياه، وهو يحرص على أن لا يفوت منه شيء دون فائدة، ويستثمره في مرضاة الله، وفيما يقربه إليه، وفيما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فالقرآن الكريم يحض المؤمنين على التسارع الحضاري عملاً، وإنجازاً، وإبداعاً، ويعلن الرفض للكسل والاتكال؛ لأن الدنيا مزرعة الآخرة، والخسارة كل الخسارة لمن خسر وقته في غير ما ينفعه، ومن هناك تأتي أهمية دار الدنيا، ولو نظر إليها على أنها مرحلة عابرة لا علاقة لها بما بعدها لما استحق كل هذا العناء، وقد كان السلف الصالح، ومن سار على نهجهم من الخلف أحرص الناس على كسب أوقاتهم وملئها بالخير، سواء في ذلك عالمهم، وعابدهم، فقد كانوا يسابقون الساعات، ويبادرون اللحظات، ضناً منهم بالوقت، وحرصاً على أن لا يذهب منهم هدراً، وكانوا على الدوام يبذلون مساعيهم في أن ينتفعوا بكل لحظة من لحظات حياتهم الدنيا، قال الحسن البصري ﷺ: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك[2]، وقد استفاد السلف من الدنيا واستمتعوا بها، وتصرفوا فيها على وجه متوسط بين الرهبانية والنفعية، مما لا تعثر له على شبيه في حضارة أخرى، لقد كان تصورهم للخلافة تحثهم على أن يستمتعوا بالدنيا، وينتفعوا بنعيمها[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه : الرقائق /٥، ٧/ ١٧١

(٢) راجع (سير أعلام النبلاء) الذهبي : ٤/ ٥٨٥.

(٣) راجع هذا المبحث في كتاب (قيمة الزمن عند العلماء) عبد الفتاح أبو غدة : ص/٥ - ٢٧ ، وقد ذكر رحمه الله طرفا من صورًا. السلف في اهتمامهم بأوقاتهم فليراجع . و (الحضارة الإسلامية أسسها و مبادئها)أبو الأعلى المودودي: ص / ٤٦- ٤٧ .

ويتحدث القرآن الكريم عن المؤمنين فيقول: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١]، ونلمس في التعبير بوضوح فكرة الزمن ، لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات الخيرة، "وهكذا تجيء التجربة الإيمانية لا لكي تمنح الحضارة في مرحلة نموها ... وتفردها وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التفكك، والتبعثر، والانهيار فحسب، وإنما لكي ترفدها بهذين البعدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون و الطبيعة، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم، لأنهم يؤمنون بالله و اليوم الآخر، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣][1] .

بينما غير المؤمن لا يدرك هذه النعمة العظيمة فتذهب هدراً، قال تعالى مؤنباً الكفار إذ أضاعوا أعمارهم: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، قال الحافظ ابن كثير: "ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع

---

(١) (التفسير الإسلامي للتاريخ) عماد الدين خليل: ص /٢٢٦ .

بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟ ... وقال قتادة: اعلمـوا أن طـول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر"[1].

* * *

(١) (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير: ص / ١٥٥٨.

المبحث الرابع - الإيمان سبب رئيس في استتباب الأمن

الأمن والأمان شرط ضروري لبناء حضارة إنسانية، فهو ضروري لعملية البناء، والإبداع، فلا يمكن للخائف أن يبدع؛ لأن التفكير يصاب بالشلل نتيجة الخوف.

وقد مرَّ بنا أن إحدى معاني الإيمان اللغوية سكون القلب، والإيمان يحقق الأمان والطمأنينة، بما يحقق من اطمئنان داخلي، وما يحمله من تشريع يحقق الأمن في إصلاح الفرد والمجتمع، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢]، فالأمور بيد الله فهو الذي يحق الأمان ولا يهبه إلا لمن يشاء، ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٣-٤]، فالأمن نعمة ملازمة للإيمان الصحيح، وحين يخرج الناس عن مقتضى الإيمان يصيبهم الخوف والوجل، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢]، وكانت سبأ مثالاً صارخاً لهذه النعمة التي زالت بسبب الكفر والجحود، قال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٨-١٩].

ورسول الله ﷺ حين جاءه عدي بن حاتم بشره بالأمن الذي سيستتب من جراء هذا الدين، عن عدي بن حاتم قال:" بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: (يا عدي هل رأيت الحيرة)، قلت: لم أرها، وقد أنبئت

عنها، قال: (فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طيئ[1] الذين قد سعروا البلاد، (ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى) قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: (كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب، أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه ... قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه)[2] .

إذاً فالأمن النفسي يتحقق من خلال مفهوم الإيمان الصحيح بالقضاء والقدر، والأمن الخارجي يتحقق من خلال تطبيق شرع الله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩]، و"امتازت حضارة الإسلام بالانسجام والأمن، وليس ذلك مقصوراً على انسجام وأمن اجتماعيين خارجيين، تأتلف بهما العناصر والطبقات، وتُتقى بهما ويلات الحروب الاجتماعية، ولكن الانسجام والأمن اللذين امتازت بهما الحضارة الإسلامية، يبتدئان انسجاماً، وأمناً داخليين فرديين، تتألف فيهما المدارك الإنسانية، وتتقى بهما ويلات داخل النفس الإنسانية، هي ويلات الحيرة والاضطراب، وتنازع الأفكار والعواطف، وحرب بين المعقولات والعقائد، وتقسيم بين الروحانيات والماديات، ومقتضيات المصالح، وواجبات الخالق"[3].

---

(١) دُعَّارُ طيئ: أراد بهم قُطَّاع الطُّرق. (النهاية في غريب الحديث) ابن الأثير: ٢/ ١١٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه : كتاب المناقب/علامات النبوة في الإسلام ، ٤ / ١٧٥-١٧٦.

(٣) (روح الحضارة الإسلامية) محمد الفاضل بن عاشور: ص / ٢٢- ٢٣ .

ويرتبط بالأمن والأمان مبدأ الحرية ، "فالحضارة تفترض أناساً أحراراً؛ لأن بالأحرار وحدهم تتحقق الحضارة، وتصنع"[1]، ولم تأتِ حقوق الإنسان في الإسلام نتيجة كسب بشري، أو صراع طبقي مرير عبر التاريخ حتى استوت على صورتها الحالية، وإنما هي منحة ربانية منحها لعباده، ومن ثم فله وحده المنَّة والفضل، ومن هنا نقول: إن ما كان عند غيرنا حقاً ينتزع كان عندنا منحة إلهية ليس لأحد أن يمنَّ بها على أحد، فالإيمان يضمن للإنسان جميع أنواع الحريات، الحرية الدينية، والسياسية، والاقتصادية، ولكن ضمن ضوابط، ولما كان الاختلاف من السنن الكونية فليس للمسلم أن يكره أحداً في الدخول في هذا الدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، قال روبرتسن[2] في كتابه (تاريخ شارلكن): "إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية"[3].

ونعني بالحرية السياسية أن يكون لكل فرد بالغ في الدولة الإسلامية الحق في النصح للدولة وسياساتها، ومراقبة سير الأمور فيها، وقد ضمن الإسلام ذلك إذ جعل نظام الحكم قائماً على الشورى حتى بالنسبة لرسول الله ﷺ فيما لم يأت فيه وحي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الشورى:٣٨]، ومن المعروف أن الجمعية العامة للأمم المتحدة أقرت في العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨م ما يسمى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وقد اشتمل هذا الإعلان على ثلاثين مادة كان من أهمها النص على أنه

(١) (فلسفة الحضارة) ألبرت اشفيتسر : ص/ ٢١.
(٢) لم أجد له ترجمه.
(٣) (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) يوسف القرضاوي: ص/ ٢١ .

"يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق"، وأن "لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون تمييز بسبب العنصر أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي السياسي، أو أي رأي آخر، ودون تفرقة بين الرجال والنساء"، ومن الواضح أن إعلان هيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان وإن جاء متأخراً عما قرره الإسلام في هذا الشأن أربعة عشر قرناً إلا أنه بوجه عام يتفق مع نظرة الإسلام إلى هذه الحقوق في كثير مما ورد فيها[1].

***

(١) راجع (في الفكر الإسلامي) عوض الله حجازي وآخرون: ص/ ٣٨٩-٤١٠ .

المبحث الخامس ـ أثر الإيمان في البيئة الطبيعية

الأرض وما عليها وما يحيط بها هي البيئة التي احتضنت الإنسان وعاش عليها منذ عصور موغلة في القدم، منها جمع قوته، واتخذ من أشجارها بيوتاً ومن كهوفها ملاجئ، وكان للبيئة الطبيعية تأثير على تطَور الحضارة منذ العصور القديمة، والتاريخ الحضاري يشهد للجهود المبذولة من قبل الإنسان لتذليل الصعوبات البيئية لإنشاء حضارته[1]، وظهرت نظريات في العصر الحديث عنصرية تدعو إلى فضل أرض ووطن كما كانت تدعو إلى فضل جنس، وهذه النظريات ما فتئت تؤكد دور عوامل البيئة في نشوء الحضارة فميزوا بين أهل الجبال وأهل الأراضي المنخفضة الحارة الرطبة، وقد تأثر ابن خلدون في مقدمته بنظرية البيئة، وأورد بعض الأحكام المبنية عليها[2].

ولسنا هنا بصدد مناقشة تلك الأقوال، وإن كنا لا ننكر البتة تأثير البيئة في الإنسان، وفي الشكل الحضاري الذي يبنيه، ومهما كانت البيئة فقيرة يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها بالإرادة القوية، ولا أدل على ذلك من أن أعظم حضارة أدهشت العالم، وكانت نقطة تحول في التاريخ الإنساني هي الحضارة الإسلامية، وانطلاقتها من الجزيرة العربية التي كانت قليلة الموارد إلى حد الفقر، "وقد بدأت ألمانيا في التحرك عام (١٩٤٨م) بخمسة وأربعين ماركاً، وهذا مبلغ تافه في الاستثمار، أما الاستثمار الحقيقي، فقد كان في رأسمال الأفكار: التي

(١) راجع (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون: ص / ١١١ـ ١١٢.
(٢) راجع (مقدمة ابن خلدون) ابن خلدون: ص/ ٦٠ ـ ٦٢ . و (قصة الحضارة) ول ديورانت: ١/ ٣ـ ٤ . (الحضارة) حسين مؤنس: ص/ ٢٨ـ ٢٩. و (الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية) توفيق يوسف الواعي: ص / ٦٦ـ ٧١. (الحضارة الإسلامية) محمد البطاينة، ص / ١٤ـ١٥ . و (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون: ص/ ٨٠ .

هـي في رأس كـل ألمـاني، في تـصميم الـشعب الألمـاني، وفي الأرض الألمانية، التي كانت فقيرة ومحتلة من الآخـرين، ولكنهـا كانـت الـسند اللازم لكل نشاط"[1]، وقد أكد توينبي أن الحضارات قد تنشأ في بيئات مختلفة، وبيَّن أنها مـساعدة لنـشوء الحـضارة بـشرط أن يتـوفر وجـود الحافز الأساسي[2].

ولا شك أن سعة موارد الرزق سبب من أسباب الازدهار، وبناء الحضارات، كما أن شح الموارد أحد أهم أسباب انهيارها، و"علاقة الإيمان بالدنيا ليس فقط ضمان كسبها من وجه شريف، فإن التلطف في استنباط الخير من خزائن الأرض كسب هائل لدين الله، وأبواب ذلك فوق الحصر، إن التمكن في الأرض، واستثمار خيراتها، وإجادة أنواع الحرف والفقه في قوى الكون وأسرار الوجود خصائص عامة استحق بها بنو آدم الاستخلاف في الأرض"[3]، وإذا كان كثير من الشعوب القديمة تعبد قوى الطبيعة خوفاً منها، نجد في العصر الحديث أن هذا الخوف لا يزال مسيطراً على عقول الغربيين، ولذلك يستخدمون مصطلح الصراع مع الطبيعة، إلا أن هذا المفهوم ينبذه الإسلام، بل يعقد بين المؤمن والبيئة الطبيعية علاقة مودة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[4]، لأنها مسخَّرة له، فلم تعد علاقة المؤمن بها تقوم على الرهبة والخوف من مظاهر الطبيعة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣]، ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً

(١) (مشكلات الحضارة ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) مالك بن نبي: ص/ ١١٦.

(٢) راجع (التفسير الإسلامي للتاريخ) عماد الدين خليل: ص / ٧٣ .

(٣) (هذا ديننا) محمد الغزالي: ص/ ٨٧ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه : الاعتصام / ١٦، ١٥٣/٨.

وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان:٢٠]، فهذه العلاقة الفوقية للإنسان على الطبيعة تدعوه إلى السعي لاستثمار خيرات الأرض في تنفيذ متطلبات استخلافه على الأرض، وهذا لن يتأتى إلا بالنظر العميق واكتشاف قوانين وأسرار الطبيعة، وهذا كله لتحقيق العبودية لله تعالى، مع عدم هدره لموارد الطبيعة، وإفسادها، لأنها عطية من الله رب العالمين للإنسان، ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن:١٠]، فإذا كانت مسخرة للإنسان، ووضعت له فلِمَ الفساد ؟ قال الشيخ أبو سليمان الداراني: "إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة"[1]، فالفساد لا يتأتى إلا مع النظرة القائلة بالصراع؛ لأنه يحاول أن يحصل منها على أكبر قدر ممكن من الخيرات فيبدد مواردها، ويفسدها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقد مرَّ بنا أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ استثمروا البيئة الطبيعية بما سخرها الله ﷻ لهم، فداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ قد شيدا أعظم حضارة في زمانهما بما كانا يملكانه من موارد هائلة من الجياد، والطير، والحديد، والريح، ... وهذا كله يعني شيئاً واحداً أن الإيمان لا يقود المسلم إلى الرهبنة واعتزال الناس، بل يدعوه دائماً أن يكون فاعلاً ومؤثراً يستخدم موارد الطبيعة لإسعاد الإنسان.

فالدافع الإيماني لاستثمار خيرات الأرض، والنظام الاقتصادي الإسلامي يذلل العقبات في سبيل نماء الخير، ويحقق الرفاهية والسعادة، ولا أدلَّ على ذلك من القصة السابقة حين بشَّر رسول الله ﷺ عدي بن حاتم رضي الله عنه باستفاضة المال حتى لا يوجد من يأخذه، وحصل

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير : ص / ٤٢٨ .

ذلك في زمن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فقد اغتنى الناس في زمانه[1].

ومن جهة أخرى نجد أن الله تعالى يفتح لعباده المؤمنين بركات السماء والأرض، و ما من أمة كفرت إلا أوشك الله أن يعمهم بالعذاب، ويذيقهم لباس الجوع والخوف بما كانوا يكفرون، فخيرات السماء والأرض تفتح للمؤمنين الصادقين، وكفى بوعد الله دليلاً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦].

فهاهي حضارة سبأ كانت تعيش في رغد من العيش الهنيء، ونعمة، وسعة رزق، وزروع وثمار، و لم يكونوا بحاجة إلا إلى مزيد من الشكر على نعم الله بتوحيده، وعبادته، ليديم عليهم النعم، فكانوا كذلك ردحاً من الزمن كما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

---

(١) راجع (سير أعلام النبلاء) الذهبي: ٥/ ١٣١.

﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ:١٥-٢١].

لما كانوا موحدين عابدين عاشوا عيش المترفين، وحين أعرضوا، وعدلوا عن عبادة الله تعالى بدلهم الله من سعة في الرزق إلى ضيق، ومن الرفاهية والنعماء إلى خشونة وشدة، فقد أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، فأصبح ما كانوا فيه من نعمة قصة تتناقلها الألسنة ومثالاً للنعمة والعيش الهنيء، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها، وثمارها، بحيث إنّ المسافر لا يحتاج إلى حمل زاد وماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، يقيل في قرية، ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون في سيرهم، و وصل بهم رغد العيش أن يسيروا من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، في أمن وراحة، ولكنهم بطروا، وأحبوا مفاوز، ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد، والرواحل، والسير في الحر، والمخاوف، وظلموا أنفسهم بكفرهم فشردوا، ومزقوا كل ممزق، وتفرقوا في بلاد الله الواسعة، وأصبحت تلك الحضارة قصة تترد على الألسنة بعد أن كانت أمة ذات وجود في الحياة[1]، هذه سنة الله في خلقه، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل:١١٢-١١٣]، فانتهاء الحضارات ما هي إلا نتيجة حتمية للكفر والذنوب، والفسق، والظلم، وتفجر خيرات السماء والأرض لأهل الإيمان، وضنك العيش

---

(١) راجع (تفسير ابن كثير) ابن كثير: ص / ١٥٣٧ - ١٥٣٨ .

مع الكفر والمعصية أمر بدهي؛ لأنه لا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركتها، ومحبتها لفاطرها، وبارئها وحده، كما لاوجود لها إلا بإبداعه وحده، وبيان ذلك أن فساد العالم ناشئ في كثير منها إلى اختلاف الملوك والسلاطين، وذلك بتقسيم البلاد، وطلب العلو بعضهم على بعض، والتاريخ مليء بشواهد على ما نقول، هذا على مستوى العالم، وصلاح السماوات، والأرض، واستقامتهما، وانتظام أمر المخلوقات دليل على وحدانية الإله، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإذا كان في الكون أكثر من إله أدى إلى فساده، فلا شك أن صرف شيء من العبادة لغير الله بالشرك، أو الكفر، أو ما يناقض الإيمان سيؤدي إلى فساد العالم، وعدم انتظامه، وعلى هذا فانتظام أمر العالم لا يتم إلا بالإيمان، وصدق الله: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٨٨-٩٣].

ويعترف (توينبي) أن جلَّ الدول و الحضارات قد اندثرت بعد عصور لما ارتكبت من حماقات وأخطاء، وقد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول[١].

***

(١) راجع (في فلسفة الحضارة الإسلامية) عفت الشرقاوي: ص/ ٢٠٤.

المبحث السادس ـ الإيمان يورث المعرفة الصحيحة

يمثل العلم عاملاً مهماً من عوامل البناء الحضاري لأيّ مجتمع من المجتمعات لما يترتب على مفاهيمه وتطبيقاته من آثار واضحة على مسيرة الإنسان الحضارية، وتأتي ضرورة العلم لإعمال العقل والحواس وجميع الملكات الإنسانية لاستثمار ما يحيط بالإنسان لخدمته، وسعادته، ورقيه دون أن يشقى الإنسان، وإذا كانت الحضارة هدفاً وضالةً، وغايةً يسعى المسلم إليها من واقع كتابه الذي آمن به وتعاليم رسوله الذي اهتدى به، فليس ثمة شك في أن العلم يدفع إلى التدبر والتفكير الخلاق، والإبداع، وكل ذلك ينبت حضارة، وينشئ معرفة[1].

ولعلنا نشير إلى أهمية الإيمان في توليد المعرفة الحقة في ثلاث نقاط:

أولاً: الإيمان روح كما مرَّ بنا يحيا به الإنسان، وهو نور يمنحه الله لعباده المؤمنين، ليستنيروا به في حياتهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٢٨]، وهو نور يشرح القلوب، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢]، فالإيمان القوة الهادية، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن:١١]، وبه

(١) راجع (معالم الحضارة الإسلامية) مصطفى الشكعة: ص/ ١٩ـ ٢٠ .

يفرق بين الحق والباطل؛ لأنه هداية ونور في القلوب، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال:٢٩].

فالإيمان أوجد لدى المسلم بصيرة نافذة، ورؤية شمولية لأحداث التاريخ، وبذلك استطاع أن ينضبط مع حركة السنن، والنواميس، ويستغلها أفضل استغلال، ووصل به الأمر حتى يستقري المستقبل، كل ذلك بفضل هذا الضياء ـ القرآن الكريم مصدر استقاء المعارف والسنن الكونية ـ الذي "يربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها، وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم ـ قبل الإسلام ـ لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة، لولا هذا الإسلام ـ وكتابه القرآن ـ الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا، إن النظام القبلي، الذي كانوا يعيشون في ظله، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة، ومجريات حياتهم، فضلاً على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها، فضلاً على الربط بين الأحداث العالمية، والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً، وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمن ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة، بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون، ولم يهتدوا إلى ثبات السنن، والنواميس الكونية، إلا بعد أجيال، وأجيال"[١].

ثانياً: إن الكتاب الذي أنزل على هذه الأمة نور، ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة:١٥]، وبذلك

---

(١) (في ظلال القرآن) سيد قطب: ١ / ٤٧٩.

أخرج الله المؤمنين من الظلمات إلى النور، ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ثالثاً: لما كان المؤمن مزوداً من الله بنور كاشف، وهو نور مبدد لظلام الجهل، ويفجر في أعماق المؤمن ينابيع المعرفة، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فالإيمان يدعونا إلى التفكير، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾ [سبأ:٤٦]، وطلب العلم فريضة، قال رسول الله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1]، فالإيمان الصحيح إذاً يزيد في العلم والمعرفة، ويحض عليه، ولذلك يحرص المؤمن على الاستزادة من العلم، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤]؛ لأنه سلم الوصول إلى القرب من الله وملكوته، ومعرفته فيزداد خشية، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر:٢٨].

فالعلماء أكثر الناس فهماً لآلاء الله، ووعياً لآياته، وإدراكاً لبديع قدرته، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، والعلم الوسيلة إلى محبته سبحانه وتعالى، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: "من عرف ربه أحبه"[2]، وهو من أعظم القربات (من يرد

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه : المقدمة / ١٧، ح (٢٢٤) ، ١/ ٨١، قال المحقق: "وفي الزوائد إسناده ضعيف، لضعف حفص بن سليمان، وقال السيوطي: سئل الشيخ محيي الدين النووي ـ رحمه الله تعالى ـ عن هذا الحديث، فقال: إنه ضعيف، أي سنداً، وإن كان صحيحاً، أي معنى، وقال تلميذه جمال الدين المزي: هذا الحديث روى من طرق تبلغ رتبة الحسن، وهو كما قال. فإني رأيت له خمسين طريقاً قد جمعتها في جزء. انتهى كلام الإمام السيوطي". وقال الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه) ١/ ٤٤: صحيح دون قوله (وواضع العلم) ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) :السابع عشر من شعب الإيمان وهو باب في طلب العلم، ح(١٥٤٣)، (١٥٤٤)، (١٥٤٥) ، (١٥٤٦) ، (١٥٤٧)، ٤/٢٨٩-٢٩٤.

(٢) (مختصر منهاج القاصدين) ابن قدامة: ص/ ٣٣٨ .

الله به خيراً يفقهه في الدين)[1]، ومعرفة المؤمن هي معرفة كاملة غير قاصرة؛ لأنه يعرف السنن، ويعلم أن الله خلق هذا الكون وفق سنن كونية، واجتماعية، وشرعية، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]، من أولى خصائص الإيمان بالله، ومزاياه البارزة أنه يوسع وجهة نظر الإنسان قدر هذا الكون، ألا ترى أن الإنسان ما دام ينظر إلى الدنيا ليس إلا على اعتبار علاقاته نفسه فإنما يُكَوِّنُ نظرة محدودة بالدائرة الضيقة التي تكون محدودة بها قوته وعلمه ومطالب نفسه، بهذه الدائرة كانت نفسه هي المنظار الذي ينظر به إلى كل شيء في هذا العالم، ولكنه إذا آمن بالله يخرج نظره من هذه الدائرة الضيقة، ويسع الكون كله، وهو عندئذ لا ينظر إلى الكون على اعتبار علاقته نفسه، وإنما ينظر إليه على اعتبار علاقته بالله، وهناك تقوم علاقة جديدة بينه وبين سائر الموجودات في هذا الكون[2]، ولا عجب إن تكررت في القرآن في خواتم الآيات العبارات الموقظة للفكر، التي تدعو إلى التحرير من ربقة الجمود، والتقاليد البالية، مثل ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾، "إن العلم في المفهوم الإسلامي لا ينحصر في جانب واحد، كعلم العقيدة، والشريعة، والفقه، وغير ذلك من العلوم الدينية، وإنما يشمل كل ما يفيد الإنسان، ويساعده على القيام بأعباء الأمانة التي تحمّلها منذ استخلفه الله في الأرض من أجل عمارتها.. وقد وردت كلمة العلم في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على (الدين) نفسه الذي علم أنبياءه ـ عليهم السلام ـ، ويطلق على النواميس التي يسيِّر

---

(١) رواه البخاري في صحيحه : العلم / ١٠، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه: الزكاة/ ٣٣، ح(١٠٣٧)، ٢/ ٧١٨.

(٢) راجع (الحضارة الإسلامية) أبو الأعلى المودودي: ص / ١٣٩- ١٤٠ .

الله بها ملكوته العظيم، ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن"[1].

بينما المعرفة عند غير المؤمن ناقصة، مبتورة مهما أوتي من العلم، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧]؛ لأنها معرفة سطحية، قاصرة، تفتقر إلى الشمول، وتنطلق من الأنانية، ومن مفهوم ضيق، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

ومن هنا ندرك النقلة العظيمة التي بدأها المسلمون بتوجيهات من القرآن الكريم، في البحث العلمي من المجال النظري، إلى المجال الفلسفي التجريدي، إلى المجال العلمي للآفاق الواسعة التي وصل إليها في القرون الأخيرة، يقول (بريفولت)[2] في كتابه (بناء الإنسان): "إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لهم بوجوده نفسه، فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود، وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية، وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني..أما ما ندعوه (العلم) فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة .. وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربي"[3]، ولو أردنا دليلاً على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥٪ على الأقل من سكان الغرب في القرون القرن التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر كانوا

---

(١) (أسس مفهوم الحضارة في الإسلام) سليمان الخطيب: ص /٢٧١.

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) (واقعنا المعاصر) محمد قطب: ص / ٨٤ .

لا يستطيعون القراءة والكتابة، بينما كان شارل الأكبر يجهد في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة، كان أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة، وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم، بينما كان هذا يحدث في الغرب كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنيين والبنات، يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرؤون مقاطع من القرآن حتى يجيدوها، وكان الدافع إلى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في أن يكونوا مسلمين حقاً، فاندفعوا إليه عن رغبة وإيمان؛ لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن[1] .

ونظرية المعرفة القائلة إن المعرفة تتكون عن طريق مبادئ العقل مع الحواس هي نظرية إسلامية سبق بها الإسلام الغرب بمئات السنين، فقد نزل بها القرآن، فعن استعمال السمع مع العقل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، وعن استعمال البصر مع العقل قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وعن استعمال السمع والبصر مع العقل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي تحث على استعمال الحواس مع العقل، ومما ينبغي التنويه إليه هنا أن القرآن اقتصر على السمع والبصر؛ لأنهما من أهم وسائل المعرفة، فبينما كان هذا أمراً بدهياً عند علماء المسلمين كان علماء الغرب يتخبطون في هذه المسألة خبط عشواء بين العقلانيين، والتجريبيين،

---

(١) راجع (شمس العرب تسطع على الغرب) زيغريد هونكه: ص/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

فالفريق الأول حصر المعرفة في العقل بينما الفريق الآخر حصرها في التجربة.

"ومما يحسب لهذه الأمة في التاريخ أنها رسخت معنى التوحيد في صورته الحقيقية ـ صورة التلقي من عند الله ـ و أنشأت على أساسه حضارة هائلة متشعبة ألوان النشاط، وحركة علمية في شتى فروع العلم، فكانت الأمة الفريدة في التاريخ التي طبقت المنهج الرباني في واقع الأرض، وعرضته للبشرية رائقاً صافيا تسري فيه أعمال البشر مصبوغة بصبغة الله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة:١٣٨]"[١].

الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي قامت على أسس من الإيمان والعلم، وواءمت بينهما، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق:١]، فهذه الآية فيها دلالة واضحة لهذه الأمة بأن حضارتها حضارة العلم والإيمان ، ـ بينما الحضارات الأخرى تخبطت خبط عشواء، بين إيمان مشوّه مع تخلف، أو علم مع كفر وإلحاد ـ وبتوجيهات القرآن استطاع علماء المسلمين أن يحدثوا النقلة العظيمة في العلوم حتى وصل العلم إلى ما وصل إليه في العصور الحديثة، والمزية الكبرى للحركة العلمية الإسلامية، أنها جزء من هذا الدين، بشموله وتوازنه، وترابطه، لا تشذ عنه، ولا تنفصل، فكان نتاج ذلك أن لا يتعارض الإيمان مع الحقائق العلمية، وأن لا يكون العلم معول هدم للأخلاق، والقيم، والدين، ولا وسيلة للشر، فالمعرفة اللادينية تشوه الشخصية الإنسانية، وتمزقها، وهي السبب وراء ما تعانيه الإنسانية من تشتت، وشقاء روحي، وجفاء عاطفي، وخواء فكري، رغم الرفاهية والحياة الرغيدة التي يعيشها، و المزية الكبرى للحركة العلمية الإسلامية، أنها

(١) (رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر) محمد قطب: ص /١٣٩ .

جزء من هذا الـدين، بـشموله وتوازنـه، وترابطـه، لا يـشذ عنـه، ولا ينفصل، فكان نتاج ذلك أن لا يتعارض الإيمان مـع الحقـائق العلميـة، وأن لا يكون العلم معول هدم للأخلاق، والقيم، والدين، ولا وسـيلة للشر، فالمعرفة اللادينيـة تـشوه الشخـصية الإنـسانية، وتمزقهـا، وهـي السبب وراء ما تعانيه الإنسانية من تـشتت، وشـقاء روحـي، وجفـاء عاطفي، وخواء فكري، رغم الرفاهية والحياة الرغيدة التي يعيشها.

ولـذا "يجـب أن لا يبقـى نظـام التعليـم في العـالم الإسـلامي مقلـدا للنظام الغربي، أو يـترك هائمـا ليجـد مخرجـاً بنفسه، كمـا يجـب ألا يقتصر على تلبية الحاجات الدنيوية، والرغبات المادية للطلبة، أو علـى تحقيق احتراف لحقل من حقول العلم والمعرفة، وإحراز نجاح شخصي ومـادي، بـل يجـب أيـضا أن يعطـى للنظـام التعليمـي رسـالة، وهـذه الرسالة لا تكون سوى إضفاء الرؤية الإسلامية"[١]، فيجـب أن يكـون النظام التعليمي نظاماً واحداً ينبع من الروح الإسلامية.

ثمة مسألة أخرى ترتبط بالضرورة الإنسانية لأسلمة المعرفة تلك هي أن النشاط المعرفي اللاديني اندفع باتجاه إغراءات القوة والتسلط، ونداء الأثرة المعرفية لكي يحوِّل المنجزات والكشوف إلى سلاح يشهر بوجه الإنسان، فالمعرفة اللادينية لم تحرم الشعوب الفقيرة من الإفادة من ثمار هذه المعرفة فحسب، وإنما وجهت نتائجها وتشوفها لتدمير هذه الشعوب واستعبادها.

إن إنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية ليؤشـر بـشكل واضـح علـى الكارثة التي يمكن أن يساق إليها البشرية إذا ظلـت المعرفـة بعيـدة عـن الإيمـان وغـير منـضبطة بـالقيم والمـوازين الإلهيـة، إن المعرفـة الإيمانيـة منضبطة تسعى لخير الإنسانية وتمنح أكلها كل حين بإذن ربهـا للنـاس

---

(١) (مدخل إلى إسلامية المعرفة)عماد الدين خليل: ص/٤١.

كافة على خلاف المعرفة اللادينية أو الملحدة، إن تجربتنا التاريخية علمتنا كيف تكون المعرفة المؤمنة سخية العطاء إنسانية المنحى، فالإنسان هو المستفيد في نهاية الأمر من المعرفة المؤمنة[1].

وهكذا رأينا كيف أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الإنسانية الوحيدة التي جمعت بين العلم والإيمان، وما كان من الممكن أن تتم هذه النقلة في العلوم التجريبية لولا الحضارة الإسلامية القائمة على الإيمان .

***

---

(١) راجع (المصدر السابق): ص/١٩ـ٢٠.

الخاتمة

إن مما يميز الدين الإسلامي أنه دين متكامل، فهو يقدم تصوراً كاملاً للحياة، ويجعل من الحياة الدنيوية والأخروية، والجسد والروح، وحدة لا تنفك، فالبناء الحضاري في الإسلام بناء كامل وشامل، وإنجاز مادي محكوم بالقيم العليا التي يُقررها الإسلام، فالحضارة الإسلامية هي حضارة العلم والإيمان، تستهدف الرقي بالإنسان من جميع الجوانب: الجانب الروحي، والمادي، والعقلي، لكي يَنْمُوَ نُمُواً كاملاً، وأي خلل في أي جانب من الجوانب يؤدي إلى تمزق الإنسان، وحيرته، وتشتته، ومن هنا نقول إن التخلف عن الإسلام هو تخلف في جميع مناحي الحياة، ونستطيع أن نقول: نشأت من التخلف العقدي "كل ألوان التخلف التي أصابت العالم الإسلامي: التخلف العلمي، والحضاري، والاقتصادي، والحربي، والفكري، والثقافي، وقد تختلف النسبة بين العوامل المختلفة التي أدت إلى التخلف العقدي في تأثيرها في كل نوع من أنواع التخلف ... ولكنها موجودة في مجموعها، وعاملة في كل مجال من مجالات التخلف التي ترتبت أصلاً على التخلف العقدي، واستمدت منه"[١]، وهذه الحقيقة أشار إليها كثير من العلماء[٢]، إذاً فالغياب الحضاري، أو الأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة المسلمة اليوم هي أزمة فكر أولاً وقبل كل شيء؛ لأن العقل المسلم قد توقف عن العطاء، حتى انتهينا إلى هذا الغياب الحضاري.

---

(١) (واقعنا المعاصر) محمد قطب: ص / ١٦١ .

(٢) راجع (مشكلات الحضارة) مالك بن نبي: ص / ٦٤.

النتــائج: وبعد أن ألقينا الضوء على أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانية نخلص إلى النتائج التالية:

١ـ القرآن الكريم مستودع لقوانين وسنن ربانية في قيام الحضارات واندثارها .
٢ـ الأمة الإسلامية باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ففيها بذرة الديمومة والبقاء، والإصلاح الذاتي .
٣ـ الإيمان الحق يحقق عوامل تكوين الحضارة الإنسانية .
٤ـ الإيمان الحق يصنع الإنسان الصالح ليبني الحضارة الإنسانية السامية.
٥ـ الشخصية الإنسانية السوية لا تتكون إلا من خلال الإيمان الصحيح، سواء نظرنا في ذلك إلى معاني الحياة التي يقدمها الإيمان، أو إلى تحقيق طموح العقل، أو الاستجابة إلى أشواق الروح.
٦ـ الأمن والأمان شرطان ضروريان لبناء الحضارة الإنسانية، والإيمان يحقق الأمان والطمأنينة بما يحقق من اطمئنان داخلي، وبما جاء به من تشريع يحقق الأمن .
٧ـ سعة موارد الرزق سبب من أسباب ازدهار الحضارة، وشح الموارد أحد أسباب انهيارها، فبالإيمان الصادق يفتح الله لعباده المؤمنين بركات السماء والأرض.
٨ـ الإيمان يورث المعرفة الصحيحة؛ لأنه يورث في القلب نوراً، ويدعو إلى إعمال العقل في تضاعيف السماوات والأرض.
٩ـ من السمات البارزة للحضارة الإسلامية أنها حضارة إنسانية سامية، إنها حضارة العلم والإيمان، ولم ترتق إلى هذا السمو حضارة أخرى .

التوصيات:

ولعل أهم ما نوصي به في خاتمة البحث:

أولاً – أن تتجه العناية في مناهجنا التربوية إلى الاهتمام اهتمامًا بالغًا بالجانب الإيماني؛ لأنه هو الذي يصوغ شخصية الإنسان صياغة سليمة متكاملة، وهو العامل الأساس في بناء الأمم والحضارات، فالإيمان هو الذي يدفع الإنسان إلى بنائها.

ثانياً– أن تنال دراسة السنن الربانية في الكون والحياة والإنسان اهتمامًا يليق بها في الدراسات القرآنية بخاصة، وفي سائر الدراسات العلمية، ويساعد على ذلك أن تكون مقررًا دراسيًا في أقسام الدراسات الإسلامية والإنسانية.



المراجع والمصادر

ـ **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**/ عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق رضا بن نعسان وآخرين، الرياض: دار الراية للنشر والوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

ـ **أسس مفهوم الحضارة في الإسلام**/ سليمان الخطيب، ط١، الزهراء للإعلام العربي (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)

ـ **الإسلام و الرسول في نظر منصفي الشرق و الغرب**/ أحمد حجر آل بوطامي ، ط٣، مطابع قطر الوطنية(١٣٩٨هـ).

ـ **الإسلام ومشكلات الحضارة**/ سيد قطب، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه(١٩٦٢م).

ـ **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال من العرب والمستعربين والمستشرقين**/ خير الدين الزركلي، ط١٦، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٥م.

ـ **الإنسان ذلك المجهول**/ الكسيس كاريل، تعريب شفيق أسعد فريد ، ط٣،القاهرة: مكتبة المعارف (١٩٨٠م).

ـ **الإيمان** / أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، ط٣،بيروت: المكتب الإسلامي،(١٤٠١هـ) .

ـ **تأملات في سلوك الإنسان**/ ألكسس كاريل،ترجمة محمد محمد القصاص، مراجعة محمود قاسم، القاهرة: مكتبة الخانجي.

ـ **الترغيب والترهيب**/ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، تحقيق محيي الدين ديب مستو، وسمير أحمد العطار ، ويوسف علي بديوي، ط١،دار ابن كثير ، ودار الكلم الطيب، مؤسسة علوم القرآن،(١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).

- **التفسير الإسلامي للتاريخ**/ عماد الدين خليل، ط٥،بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٩١م).
- **تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن**/ محمد بن جرير الطبري ، ط١، دار الكتب العلمية، (١٤١٢هـ /١٩٩٢م).
- **تفسير القرآن العظيم** / إسماعيل بن عمر الدمشقي ، ابن كثير، ط١، دار ابن حزم ،(١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).
- **التفسير الكبير**/ محمد بن عمر بن علي الفخر الدين الرازي ، ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**/ محمود بن عمر الزمخشري، رتبه وضبطه محمد عبد السلام شاهين، بيروت: دارالكتب العلمية ،١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- **تهذيب اللغة**/ محمد بن أحمد الأزهري، إشراف محمد عوض ،علق عليها عمر سلامة، وعبد الكريم حامد، تقديم فاطمة محمد أصلان، ط١، بيروت : دار إحياء التراث، (١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).
- **التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل** / محمد بن إسحاق، ابن خزيمة ، دراسة وتحقيق عبد العزيز الشهوان، ط٣، الرياض : مكتبة الرشد ،(١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).
- **الثقافة الإسلامية مفهومها مصادرها خصائصها مجالاتها**/ عزمي طه السيد وكايد قرعوش، ومحمد الشلبي، وإبراهيم الدبو، ونصر البنا، ووليد السعد، وخالد القضاة، ، ط٤، عمان: دار المناهج للنشر و التوزيع، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**/ محمد بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وغيره، ط٢ ، القاهرة: شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).

- **الجامع لشعب الإيمان**/ أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد،ط١، بومباي: الدار السلفية ،(١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).
- **حتى يتحقق الشهود الحضاري**/ عمر عبيد حسنة، ط ١، بيروت: المكتب الإسلامي ، (١٤١٢هـ / ١٩٩١م)
- **الحسبة** / أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق إبراهيم رمضان، ط١، بيروت: دارالفكر اللبناني،(١٩٩٢م).
- **الحضارة الإسلامية**/ محمد ضيف الله البطاينة، ط١،عمان: دار الفرقان ،(١٤٢٣هـ م ٢٠٠٢م).
- **الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية** / توفيق يوسف الواعي، ط١، المنصورة: دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع ،(١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)
- **الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها**/ أبو الأعلى المودودي ، بيروت : دار العربية للطباعة و النشر و التوزيع .
- **الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**/ حسين مؤنس، (١٩٩٤م)، بدون بيانات.
- **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**/ سيد قطب، ط٢، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية،(١٩٦٥م).
- **دائرة المعارف الحديثة - موسوعة عامة في العلوم والآداب والفنون**/ أحمد عطية الله، ط٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.
- **دراسات إسلامية**/ سيد قطب، ط١٠،القاهرة: دار الشروق ،(١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).

- **دراسات في الحضارة الإسلامية**/ أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي .
- **رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر**/ محمد قطب، ط ١، الرياض: دار الوطن للنشر،(١٤١١هـ / ١٩٩١م).
- **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**/ محمد الغزالي ط٤ ،بيروت: الدار الشامية(١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)
- **روح الحضارة الإسلامية**/ محمد الفاضل بن عاشور، ضبطها وقدم لها عمر عبيد حسنه، ط١، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).
- **سنن ابن ماجة** / محمد بن يزيد، ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث.
- **سنن أبي داود** / سليمان بن الأشعث السجستاني، أبو داود،تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، بيروت: دار الجنان، ومؤسسة الكتب الثقافية،(١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م).
- **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**/ محمد هيشور، ط١، المنصورة: دار الوفاء ،(١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م).
- **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي**/ النسائي، اعتنى به ورقمه وصنع فهارسه عبد الفتاح أبو غدة،ط٣، بيروت: دار البشائر الإسلامية،(١٤٠٩هـ /١٩٨٨م).
- **سير أعلام النبلاء**/ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أشرف على التحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٩،بيروت : مؤسسة الرسالة ،(١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).

- **السيرة النبوية** / ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
- **شرح العقيدة الطحاوية**/ علي بن أبي العز الدمشقي، تحقيق عبدالله التركي و شعيب الأرناؤوط، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة ،(١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م).
- **شروط النهضة**/ مالك بن نبي ، ترجمة عمر كامل مسقاوي ، و عبد الصبور شاهين ، ط٤، بيروت: دار الفكر المعاصر، ودار الفكر ،(١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**/ عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق على محمد البجاوي، بيروت: دار الكتاب العربي.
- **شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربة**/ زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الوري، بيروت: دار الجيل، ودار الآفاق الجديدية، ط٢/ ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م .
- **الشوقيات**/ أحمد شوقي، شرح وتعليق يحيى شامي،بيروت: دار الفكر العربي،(١٩٩٦م).
- **صحيح البخاري**/ محمد بن إسماعيل البخاري ، المكتب الإسلامي.
- **صحيح سنن ابن ماجه**/ محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- **صحيح مسلم**/ مسلم بن حجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الإفتاء،(١٤٠٠هـ).
- **صحيح مسلم بشرح النووي**/ الرياض: رئاسة إدارات البحوث العلمية و الافتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

ـ **العبودية** / أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، ، تحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة السنة المحمدية .
ـ **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**/ يوسف القرضاوي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
ـ **فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** / أحمد بن علي ، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، أشرف على طبعه محب الدين الخطيب، الرياض: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء و الدعوة والإرشاد.
ـ **فلسفة الحضارة** / ألبرت اشفيتسر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط٣، بيروت: دار الأندلس، (١٩٨٣م)
ـ **في ظلال القرآن**/ سيد قطب، ط ٧، القاهرة: دار الشروق، (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م).
ـ **في الفكر الإسلامي**/ عوض الله حجازي، ومحمد الطيب النجار، وإبراهيم زيد الكيلاني، ويحيى هاشم فرغل، ومحمد عجاج الخطيب، ومحمد عبد الفضيل، وصفوت حامد، العين: جامعةالإمارات العربية المتحدة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
ـ **في فلسفة الحضارة الإسلامية**/ عفت الشرقاوي، ط٤، بيروت: دار النهضة العربية(١٩٨٥م)
ـ **القاموس المحيط** / محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٢، مؤسسة الرسالة ، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
ـ **قصة الحضارة**/ ول دايريل ديورانت، تقديم محيي الدين صابر ، ترجمة زكي نجيب محمود ، بيروت : دار الجيل ،(١٩٨٨م).

ـ **قيمة الزمن عند العلماء**/ عبد الفتاح أبو غدة، ط٨، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية ،(١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
ـ **كانط** / أوفي شولتز، ترجمة سعد رزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٥٧م .
ـ **لسان العرب** / جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ، **ابن منظور** ، ط ١، بيروت: دار صادر، (١٩٩٧م).
ـ **مختار الصحاح**/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مراجعة لجنة مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٧٦م).
ـ **مختصر منهاج القاصدين**/ أحمد بن عبد الرحمن، ابن قدامة المقدسي، علق عليه شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، ط٤، دمشق : دار البيان،(١٤١١هـ / ١٩٩١م).
ـ **مدخل إلى تاريخ الحضارة**/ علي الناطور شحادة، وآخرون، عمان: دار الكندي، (١٩٩١م).
ـ **المستدرك على الصحيحين**/ محمد بن عبد الله النيسابوري الحاكم، بيروت : دار الكتب العلمية .
ـ **مسند الإمام أحمد**/ أحمد بن حنبل، بيروت: دار صادر.
ـ **المشكلة الأخلاقية والفلاسفة**/ أندرسون كرسون، ترجمة عبد الحليم محمود، وأبو بكر زكريا، ط٢، دار الكتب الحديثة .
ـ **معالم الثقافة الإسلامية**/ عبد الكريم عثمان، ،ط٤،الرياض: مؤسسة أنوار،(١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م).
ـ **معالم الحضارة الإسلامية**/ مصطفى الشكعة ، ط٤، بيروت : دار العلم للملايين،(١٩٨٢م).

ـ **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية والإنكليزية و اللاتينية**/ جميل صليبا، بيروت: دار الكتاب اللبناني، القاهرة : دار الكتاب المصري.
ـ **معجم مقاييس اللغة** / أحمد بن فارس بن زكريا ،تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي،(١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).
ـ **المعجم الكبير**/ الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، بغداد: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
ـ **المغني في الضعفاء** / محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق نور الدين عتر، اعتنى بطعبه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، قطر: دار إحياء التراث الإسلامي.
ـ **مقدمة ابن خلدون وهي مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** / عبد الرحمن بن خلدون، ط١، بيروت : دار الفكر العربي ،(١٩٩٧م).
ـ **من أجل انطلاقة حضارية شاملة أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع**/ عبد الكريم بكار، ط١، دمشق: دار القلم (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
ـ **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**/ عبد الرحمن ابن الجوزي ، تحقيق علي محمد عمر ، ط١، القاهرة : مكتبة الخانجي،(١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).
ـ **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن** / محمد سعيد رمضان البوطي، ط٢، دمشق : دار الفكر ،(١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).
ـ **الموسوعة العربية الميسرة**/ بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة: دار الشعب، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٥٩م.

- **موسوعة الفلسفة**/ عبد الرحمن بدوي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٤م.
- **ميلاد مجتمع شبكة من العلاقات الاجتماعية**/ مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق : دار الفكر، (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م).
- **نحن والحضارة الغربية**/ أبو الأعلى المودودي، جدة : الدار السعودية للنشر و التوزيع(١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- **نحو ثقافة إسلامية أصيلة** / عمر سليمان الأشقر، ط ١٢ ، عمان : دار النفائس ،(١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م).
- **نقد العقل العملي**/ عمانوئيل كانط، ترجمة أحمد الشيباني، بيروت: دار اليقظة العربية ، (١٩٦٦م).
- **هذا ديننا**/ محمد الغزالي ، ط١، دمشق : دار القلم ، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- **هل الإسلام هو الحل لماذا وكيف**/ محمد عمارة ، ط٢، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- **واقعنا المعاصر**/ محمد قطب، ط١، القاهرة : دار الشروق،(١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).

***

نبذة عن المؤلف

الاسم : أحمد معاذ علوان حقي

تاريخ الميلاد : ١٩٥٨ **الجنسية** : أردني

العنوان الدائم : سوريا / محافظة الحسكة / مدينة القامشلي

هاتف (٤٢٣٢٤٤) **المكتب** : ٠٦-٥٠٥٠١٧٦

المحمول : ٠٥٠-٤٨٢٧٤٢٠

عنوان البريد الإلكتروني : Hakki@sharjah.ac.ae

المؤهل العلمي :

أولاً : الكتب :

* ليسانس في أصول الدين- ١٩٨٢م - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
* ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة - ١٩٨٧م – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
* دكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة - ١٩٩٢م - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

التخصص الدقيق : العقيدة والمذاهب المعاصرة

الرتبة العلمية : أستاذ مشارك

العمل الحالي : أستاذ مشارك في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

الانتاج العلمي :

١- (**نظرية الواجب الأخلاقي عند كانط دراسة وتقويم**) رسالة الماجستير

٢- تحقيق ودراسة جزء من كتاب (**بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**) لشيخ الإسلام ابن تيمية ، رسالة الدكتوراة .مطبوع في وزارة الأوقاف السعودية ، مطبعة الملك فهد لطباعة المصحف في المدينة المنورة / ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٦م.

٣- (**فضائل العبادة**) الرياض : دار طويق ١٩٩٣م

٤- (**صفات النبي ﷺ**) الرياض : دار طويق، مشاركة ١٩٩٣م

٥- (**الأربعون حديثاً في الأخلاق مع شرحها**) الرياض : دار طويق ، ١٩٩٤م
٦- (**عبدالله بن المبارك الإمام المجاهد**) الرياض : دار طويق ١٩٩٧ م
٧- (**الفضيل بن عياض العالم القدرة**) الرياض : دار طويق ١٩٩٧ م
٨- تحقيق (**رسالة في الاستواء**) لأبي عبدالله الجويني، الرياض : دار طويق ، ١٩٩٨م

ثانياً : الأبحاث :

(**مؤلفات عمانوئيل كانط**) مجلة (عالم الكتب) مجلة محكمة
(**إسهام المسجد في رعاية الطفل**) قدم لندوة الرعاية الطفولة في الإسلام و المؤسسات المتخصصة/ جامعة شارقة/ المنعقدة في الفترة ٢٧ـ شعبان ١٤١٩هـ الموافق ١٦ـ ١٧ ديسمبر ١٩٩٨م .
(**فطرية معرفة الله تعالى**) مجلة الأحمدية / العدد الرابع، ١٩٩٩م
(**توحيد العبادة/ المجلة العلمية**) مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، العدد الرابع عشر، في ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢م
(**عالمية الإسلام والعولمة الغربية**) كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ، العدد السادس عشر ، في ٢٠٠٢م .
(**دراسة تحليلة عقدية لحديث (ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)** صحيفة دار العلوم، العدد السادس عشر في ٢٠٠٢م .
(**منهج الإمام الغزالي في نقد الفلاسفة علوم الإلهية**) صحيفة دار العلوم ، العدد التاسع عشر ، في ٢٠٠٣م
(**الاحتشام وأثره في المجتمع**) قدم لندوة الاحتشام ، جامعة السارقة/ ٦ـ٧ شعبان ١٤٢٢هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠١م .
(**أسلمة العلوم الإنسانية**) قدم لمؤتمر مستقبل الدراسات الإنسانية و الاجتماعية جامعة الإمارت العربية المتحدة، ٢٠٠١م.
(**الدعوة الإسلامية والعولمة**) قدم لندوة مقتضيات الدعوة / جامعة شارقة، ٢٠٠١م .
(**المسلمون والعولمة الثقافية**) قدم لمؤتمر العولمة التعامل والتفاعل / جامعة الإمارات ، ٢٠٠٣م
(**أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانية**) قدم لمؤتمر حاضر العالم الإسلامي عوامل التخلف و النهوض / جامعة جرش الأهلية ٢٠٠٣م.

(**المسلمون وتحديات العولمة الثقافية**) طبع في كتاب الأمة (رسالة المسلم في حقبة العولمة) وزارة الأوقاف القطرية ، ٢٠٠٣م .

(**الفرق بين النبي والرسول**) مجلة كلية الدراسات الإسلامية و العربية،العدد الثامن والعشرون، ذو القعيدة ١٤٢٥هـ/ ديسمبر ٢٠٠٤م.

(**شيخ الشام جمال الدين القاسمي وأثر رحلته إلى الحجاز في شخصيته**) قدم لمؤتمر مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية/ ٢ ،٢٠٠٤م.

(**الوازع الديني وأثره في الحد من الطلاق**) قدم لندوة ظاهرة الطلاق : الأسباب الآثار العلاج ،جامعة الشارقة، ١ـ٢ ربيع الأول ١٤٢٥هـ الموافق ٢١/ ٤/ ٢٠٠٤م .

(**القرآنيون و السنة النبوية**) بحث مقدمة لندوة الجهود المبذولة لخدمةالسنة الدنبوية/ كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية/ جامعة الشارقة٢٥ـ٢٦ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ الموافق ٤ـ٥/ ٥/ ٢٠٠٥م. ، ٢٠٠٤م. .

(**بنو إسرائيل و اليهود و الذين هادوا دراسة تحليلية**) مجلة جامعة الشارقة ، ٢٠٠٤م ، بحث محكم

(**أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانية**) نشر في مجلة المنار للدراسات و البحوث/ جامعة آل البيت ،العدد الأول، ربيع أول ١٤٢٧هـ/ الموافق ٢٠٠٦م، بحث محكم .

(**قراءة نص الوحي قراءة صحيحية تحد من افتراق الأمة**) بحث مقدم لمؤتمر المذاهب الإسلامية / جامعة آل البيت.

(**نقض دعاوي المستشرقين بتحريف القرآن الكريم من خلال المقارنةمع كتب أهل الكتاب**) بحث مقدم لمؤتمر القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،في الفترة : ١٦ـ١٨/ ١٠/ ١٤٢٧هـ الموافق ٧ـ٩/ ١١/ ٢٠٠٦م ..

(**مظاهر التيسير في الإسلام الحج أنموذجاً**) وزارة الحج في المملكة العربية السعودية/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

(**أجواء الحوار في الأندلس رسالى الباجي أنموذجاً**) مؤتمر الحوار في الفكر الإسلامي/ جامعة الشارقة ،الاثنين والثلاثاء والأربعاء : ٢٨ – ٣٠ ربيع الأول ١٤٢٨ هـ الموافق١٦ – ١٨ / ٤ / ٢٠٠٧م

(**أثر عزرا في الديانة اليهودية**) مقدم لمجلة كلية الشريعة في جامعة الكويت قبل للنشر.

الفهرس